

## سُورَةُ الْمَائِدَةِ

مدنية وهي مائة وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا  
يَتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا  
لَا تُحِلُّوا شَعْبِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهُدَىٰ وَلَا الْقَلْبِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ  
الْحَرَامِ يَتَنَعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ  
قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ  
وَالنَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ  
الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ العقود جمع عقد، وأصل العقد الربط محكماً، ثم أطلق على العهد الموثق، واختلفوا في المراد بهذه العقود، فروي عن ابن عباس أن العقود هي ما أخذه الله تعالى على عباده من الإيمان به، وطاعته في الأمر، والنهي. وروى عن زيد بن أسلم العقود بين الناس كعقد النكاح، والبيع، ونحوهما، والأظهر أنه يعم جميع ما ألزمه الله تعالى عباده، وما يعقدون فيما بينهم، مما يجب الوفاء به، أو يحسن ديناً، وبه قال الراغب لأنه أوفق بعموم اللفظ ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ

بِهَيْمَةً الْأَنْعَامِ ﴿ وهي الأزواج الثمانية الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، وألحق بها الظباء وبقر الوحش مما يماثل الأنعام في الاجترار، وعدم الأنياب، والبهيمة: ما لا عقل له مطلقاً، سميت بهيمة لما في صوتها من الإبهام، وفي الآية رد على المجوس، فإنهم حرموا ذبح الحيوانات وأكلها، وقالوا: لأن ذبحها إيلاءٌ وهو قبيح، ولا يرضى به الإله الرحيم الحكيم!! وهذا منهم سفه وجهل، فإن الله خلقها لمنافع البشر، وفي ذبحها بالطريق الشرعي راحة لها، كما قال ﷺ: «وَلِيُحَدِّدَ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلِيُرِيحَ ذَبِيحَتَهُ»<sup>(١)</sup> ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ من المحرمات، وهي الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وغيرها من المحرمات التي نهى الله عنها ﴿ عَيْرَ مِحْلَى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ أي غير مستحلين للصيد وأنتم محرمون، والحُرْمُ: جمع حرام وهو المحرم، ومحصل المعنى: أحلت لكم هذه الأشياء، غير مستحلين الاصطياد، أو أكل الصيد، في الإحرام بالحج أو العمرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ من الأحكام، حسبما تقتضيه مشيئته، المبنية على الحكم البالغة.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوْا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾ إحلل الشعائر أن يتهاون بحرمتها، وإضافتها إلى الله تعالى لتشريفها، وتهويل الخطب في إحلالها ﴿ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ أي لا تحلوه بالقتال فيه، والمراد به: الأشهر الحُرْم والإفراد لإرادة الجنس ﴿ وَلَا الْهَدْيَ ﴾ بأن يتعرض له بالغصب، أو بالمنع عن بلوغ محله، والهدْيُ، ما يُهدى إلى الكعبة من الأنعام، خصه بالذكر مع أنه داخل في الشعائر، تعظيماً له ﴿ وَلَا الْقَلَائِدَ ﴾ جمع قلادة، وهي: ما يقلد به الهدى، من نعل، أو لحاء شجر، ليعلم به أنه هدي، وعطفها على الهدى مع دخولها فيه، لمزيد التوصية بها، وهي سنة إبراهيم عليه السلام، وأقرها الإسلام قالت عائشة رضي الله عنها: «أهدى رسول الله ﷺ مرة إلى

(١) طرف من حديث شريف أخرجه مسلم رقم ١٩٥٥ والترمذي رقم ١٤٠٩، ولفظه الكامل «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتل، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليريح ذبيحته».

البيت غنماً فقلدها»<sup>(١)</sup> ﴿وَلَا آمَنِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ أي لا تُحلوا قوماً قاصدين زيارته، بأن تصدوهم عن ذلك بأي وجه كان، بقتال، أو بأذى ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أي قاصدين زيارته، حال كونهم طالبين أن يشبههم الله، ويرضى عنهم، وتكبير الفضل والرضوان للتفخيم والمراد بهم المسلمون خاصة ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ من الإحرام ﴿فَأَصْطَادُوا﴾ أي فلا جناح عليكم بالاصطياد، لزوال المانع، فالأمر للإباحة بعد الحظر ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يحملنكم، أو لا يكسبنكم، وجرم من باب ضرب، اكتسب ذنباً، ويستعمل غالباً في كسب ما لا خير فيه ﴿شَتَانُ قَوْمٍ﴾ أي شدة بغضكم لهم، والشتان: هو شدة البغض والعداوة ﴿أَن صَدُّوكُمُ﴾ أي لأن صدوكم عام الحديبية ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ عن زيارته، وطوافه للعمرة ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾ أي عليهم وإنما حذف تعويلاً على ظهوره وإيماء إلى أن المقصد الأصلي منع صدور الاعتداء من المخاطبين محافظة على تعظيم الشعائر ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ عطف على ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ كأنه قيل: لا تعتدوا على قاصدي المسجد الحرام، لأجل أن صددتم عنه، وتعاونوا على العفو والإغضاء، واختار غير واحد أن المراد بالبر متابعة الأمر مطلقاً، وبالتقوى اجتناب الهوى، لتصير الآية من جوامع الكلم، فيدخل في البر والتقوى جميع مناسك الحج ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ ليعم النهي كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي، فاندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء، وعن ابن عباس وأبي العالية أنهما فسرا الإثم بترك ما أمر الله تعالى به، وارتكاب ما نهاهم عنه، والعدوان بمجاوزة ما حده سبحانه لعباده في دينهم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع الأمور التي من جملتها مخالفة ما ذكر من الأوامر والنواهي، ثم علل ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن لم يتق الله، فيعاقبكم إن لم تتقوه.

(١) أخرجه البخاري ٤٧٣/٣ ومسلم رقم ١٣٢١ في الحج، وهذه رواية مسلم، وانظر جامع الأصول ٣/٣٤١.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخِصَّةٍ غَيْرِ مَتَّجَانِفٍ لِإِيْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْتَأْذِنُكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ شروع في بيان المحرمات التي أشير بقوله: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ ﴿ وَالْمُنْخَنِقَةُ ﴾ التي ماتت بالخنق مطلقاً، إما في وثاقها، أو بإدخال رأسها في موضع لا تقدر على التخلص منه، أو بغير ذلك، وعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يخنقون الشاة وإذا ماتت أكلوها ﴿ وَالْمَوْقُوذَةُ ﴾ التي قُتلت بالضرب كان أهل الجاهلية يضربون الشاة بالعصا حتى تموت ويأكلونها ﴿ وَالْمُتَرَدِّيَةُ ﴾ التي تردت من علو، أو في بئر فتموت ﴿ وَالنَّطِيحَةُ ﴾ أي التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ أي وما أكل منه السبع فمات ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ أي إلا ما أدرتكم ذكاته، وفيه بقية حياة، وذكيتومه، والاستثناء يرجع إلى المنخقة وما بعدها، سوى ما لا يقبل الذكاة من الميتة، والدم، والخنزير، وهذا قول ابن عباس والحسن، وقال الكلبي: مما أكل السبع خاصة، وقيل: هو استثناء من التحريم لا من المحرمات، فالمعنى: حُرِّمَ عليكم سائر ما ذُكر، لكن ما ذكيتم مما أحله الله تعالى بالتذكية فإنه حلال لكم، وروي ذلك عن مالك وجماعة من أهل المدينة، والتذكية: قطع الحلقوم، والمريء بمحدد ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ جمع نصاب وهي أحجار

كانت منصوبة حول البيت، يذبحون عليها ويعتدون ذلك قربة، وقيل: هي الأصنام وعلى بمعنى اللام أي وما ذُبح للأصنام، أو ما ذبح مسمى على الأصنام ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ روي عن مجاهد أنه فسّر الأزلام بسهام العرب التي يتقامرون بها، أي وحرم عليكم الاستقسام بالأقداح، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً، ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدهما أمرني ربي، وعلى الثاني نهاني ربي، وأبقوا الثالث عُفلاً، فإن خرج الأمر مضوا إلى حاجتهم، وإن خرج الناهي اجتنبوا، وإن خرج العُفْل أعادوها ثانياً، وإذا كان لأحدهم أمر عظيم، جاء إلى «هَبْل» واستشفع منها، وأعطى مائة درهم لصاحب القداح حتى يحلها له ﴿ذَلِكَكُمْ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام ﴿فَسَقُّوا﴾ تمرد وخروج عن الحدود، وضلال باعتقاد أنه طريق إلى العلم بالغيب، وعن ابن عباس أن ﴿ذَلِكَكُمْ﴾ إشارة إلى تناول جميع ما تقدّم من المحرمات ﴿الْيَوْمَ﴾ أي الزمان الحاضر. وقيل يوم نزول الآية، وقد نزلت بعد عصر الجمعة، يوم عرفة، في حجة الوداع والنبى ﷺ واقف بعرفات على العضاء، كما رواه الشيخان ﴿يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ اليأس انقطاع الرجاء، والمراد انقطاع رجائهم من إبطال دينكم، أو من أن يغلبوكم عليه، حيث أظهره الله على الدين كله، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أن يظهروا عليكم ﴿وَأَخْشَوْنَا﴾ أن أحلّ بكم عقابي، إن خالفتم أمري، وارتكبتن معصيتي ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالتوقيف على أصول الشرائع، وقوانين الاجتهاد، وعن ابن عباس المعنى: أكملت لكم حدودي وفرائضي، وحلالي وحرامي، وهو الأظهر حيث لم ينزل بعد ذلك من الفرائض تحليل ولا تحريم، وأنه ﷺ لم يلبث بعدها سوى إحدى وثمانين يوماً، ومضى إلى الرفيق الأعلى ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ وإتمام النعمة بفتح مكة، وهدم منار الجاهلية، وقيل: بإتمام الهداية والتوفيق ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي اخترته لكم من بين الأديان، وهو الدين المقبول عند الله لا غيره قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ متصل بذكر

المحرمات، وما بينهما اعتراض، أي فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿فِي مَخْصَصَةٍ﴾ أي مجاعة يخاف الموت أو مباديه، يُقال: خَمَصَ الشخص مثل قَرَبَ فهو خُمِصٌ: إذا جاع ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ﴾ غير مائل إليه، بأن يأكلها تلذذاً، أو مجاوزاً حدَّ الرخصة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يؤاخذهُ بأكله، لأنه عن ضرورة، والضرورات تُبيح المحظورات.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أي يسألك المؤمنون ما أُحِلَّ من المطاعم والمآكل، ومن الصيد والذبائح ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ أي ما لم تستخبه الطباع السليمة، وما لم يدل نص أو قياس على حرمة، قال الله تعالى: ﴿ويحلُّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي صيد ما علمتموه، والجوارح جمع جارحة، والهاء فيها للمبالغة، وفُسرَت بالكواصب من سباع البهائم والطيور، سميت جوارح لأنها تجرح الصيد غالباً، كالكلب، والفهد، والبازي، والشاهين، ويشترط للحل الجرح ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ من التكليب وهو تعليم الجوارح، مشتق من الكلب لأن التأديب يكون أكثر فيه، والمُكَلَّبُ: مؤدَّب الجوارح ومغريها ﴿تَعَلَّمُوهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام، أو مما علمكم أن تعلموه، من اتباع الصيد بإرسال صاحبه، وينزجر بزجره، ويمسك عليه الصيد، ولا يأكل منه ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وهو ما لم يأكل منه، أي فكلوا بعض ما أمسكنه لأجلكم، وقد قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله عليه، فكل»<sup>(١)</sup> ففي الحديث أن إرسال الصائد، وكون الكلب معلماً، وذكر اسم الله تعالى عليه وقت

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢٤٤/١ ولفظه عن عدي بن حاتم قال: سألت الرسول ﷺ فقلت: إنا قومٌ ننصِّدُ بهذه الكلاب، فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم وسميت، فأمسك وقتل فكل، وإن أكل فلا تأكل...» الحديث، ورواه مسلم في الصيد رقم

الإرسال شرط لقوله ﷺ: «فإن أكل منه فلا تأكل» وإلى هذا ذهب أكثر الفقهاء، وقال أبو حنيفة: إذا أكل الكلب من الصيد وهو غير معلّم لا يؤكل صيده، وإذا أكل الصقر فكل، لأن الكلب تستطيع أن تضربه، والصقر لا تستطيع أن تضربه، وقال مالك: يؤكل وإن أكل الكلب منه، لحديث: «إذا أرسلت كلبك، وذكرت اسم الله عليه، فكل وإن أكل منه»<sup>(١)</sup> ﴿وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي سئموا عليه عند إرساله، والأمر للوجوب عند أبي حنيفة، وعند الشافعي للندب ﴿وَأَقْفُوا اللَّهَ﴾ في محرّماته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيحاسبكم بما جلت ودق.

﴿أَلْيَوْمَ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ﴾ يعني الآن ﴿أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ كُزِرَ تأكيداً للمِنَّة، وتوطئة لما بعده ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، ويعمُّ اليهود والنصارى، ولا يلحق بهم المجوس، لقوله ﷺ: «سئموا بهم سنة أهل الكتاب، غير ناكحي نسائهم، ولا آكلي ذبائحهم»<sup>(٢)</sup> وهو وإن كان مرسلأ إلا أن إجماع أكثر المسلمين يؤكده، واختلف العلماء في حل ذبيحة اليهودي والنصراني، إذا ذكر عليها، غير اسم الله، فقال ابن عمر: لا تحل، وذهب أكثر أهل العلم إلى أنها تحل، وقال الحسن: إذا

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الصيد رقم ٢٨٥٠ وعلى هذه الرواية يجوز الأكل من الصيد وإن أكل منه الكلب وهو مذهب مالك رحمه الله.

(٢) أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي، وانظر الدر المنثور للسيوطي.

ذبح اليهودي والنصراني، فذكر اسم غير الله وأنت تسمع فلا تأكل، فإذا غاب عنك فكل ﴿وَطَعَامُكُمْ حَلُّهُمَّ﴾ فلا حرج عليكم أن تطعموهم، وتبيعوا منهم فإن قيل: ما الحكمة في هذه الجملة وهم كفار؟ أجيب بأن المعنى انظروا إلى ما أحل لكم في شريعتكم، فإن أطعموكم فكلوه، ولا تنظروا إلى ما كان محرماً عليهم، فإن لحوم الإبل ونحوها كانت محرمة عليهم، فالآية بيان لنا لا لهم، فحاصل المعنى: طعامهم حل لكم إذا كان من الطعام الذي أحلته لكم ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي الحرائر العفائف، وتخصيصهن بعث على ما هو أولى، لا لنفي ما عداهن، فإن نكاح الإماء المسلمات صحيح بالاتفاق، وكذا نكاح غير العفائف منهن ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ذهب أكثر الفقهاء إلى أنه يحل التزوج بالذمية من اليهود والنصارى، وتمسكوا فيه بهذه الآية، وكان ابن عمر لا يرى ذلك، ويحتج بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ ويؤيد هذا القول الآية الدالة على وجوب المباحة عن الكفار، كقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ قال كثير من الفقهاء: إنما يحل نكاح الكتابية التي دانت بالتوراة والانجيل قبل نزول القرآن، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلِكُمْ﴾ .

﴿إِذَا مَا تَأْتِيَهُمْ أُجُورُهُنَّ﴾ مهورهن، وتقييد الحل بإبتائها لتأكيد وجوبها والحث على الأولى ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أعفَاء بالنكاح ﴿غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ أي غير مجاهرين بالزنا، وأخرج ابن جرير عن الحسن أنه سئل عن المسافحة، قال: هي التي إذا ألمح الرجل إليها بعينه أتبعته ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي ولا مسرين به، والخذن: الصديق، يقع على الذكر والأنثى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِبْرَةِ﴾ أي ومن ينكر شرائع الإسلام التي من جملتها ما بين ههنا من الأحكام المتعلقة بالحل والحرم، ويمتنع عن قبولها ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ الصالح الذي عمله قبل ذلك ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ إذا مات على ذلك .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثْقَلَةَ الذَّرَّةِ الَّتِي وَاتَّقُوا بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ شروع في بيان الشرائع التي تتعلق بدينهم، بعد بيان ما يتعلق بديانهم ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي إذا أردتم القيام إليها كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ وظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إليها، وإن لم يكن محدثاً، لما أن الأمر للوجوب، والإجماع على خلافه، لما روي أنه صلى الله تعالى عليه وسلم صلى الخمس بوضوء واحد يوم الفتح، ومسح على خفيه فقال عمر: «لقد صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال ﷺ: عمداً صنعتُه يا عمر»<sup>(١)</sup> يعني بياناً للجواز، فظهر أن الآية مقيدة، والمعنى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين، بقرينة دلالة الحال واشتراط الحدث في التيمم، الذي هو بدل، وما نقل عن النبي ﷺ والخلفاء أنهم كانوا يتوضؤون لكل صلاة، فلا يدل على أكثر من الندب ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي أسيلوا عليها الماء، وحدّ الإسالة أن يتقاطر الماء ولو قطرة، ولا حاجة إلى ذلك، خلافاً لمالك ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ الجمهور على دخول المرفقين، ولذلك

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الطهارة رقم ٢٧٧، باب جواز الصلوات كلها بوضوء واحد.

قيل: إلى بمعنى «مع» كقوله تعالى: ﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ وقال الشافعي: لا أعلم خلافاً في أن المرافق يجب غسلها ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ المراد إصاقي المسح بالرأس، فكأنه قيل أوصقوا المسح برؤوسكم، وذلك لا يقتضي الاستيعاب كما يقتضيه ما لو قيل: وامسحوا برؤوسكم، فإنه كقوله تعالى: ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ واختلف العلماء في قدر الواجب، فأوجب الشافعي أقل ما ينطلق عليه الاسم أخذاً باليقين، وأبو حنيفة أخذ ببيان رسول الله ﷺ حيث مسح ناصيته، وقدرها ربع الرأس، ومالك مسح الكل أخذاً بالاحتياط، والإمام أحمد في أظهر الرواية عنه، إلى أنه يجب استيعاب الرأس بالمسح ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ منصوبٌ عطفاً على ﴿وجوهكم﴾ ويؤيده السنة الشائعة وعمل الصحابة، والتحديد إذ المسح لم يحدّد وذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة إلى أن فرض الرجلين هو الغسل، وشذت الشيعة فقالوا: إن الواجب في الرجلين المسح وما يزعمه الشيعة من نسبة المسح إلى ابن عباس كذبٌ عليه<sup>(١)</sup> ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا﴾ اغسلوا أبدانكم، والمعنى: إذا قمتم إلى الصلاة وكنتم جنباً فطهروا أبدانكم كاملاً، والدليل على إرادة الغسل قوله تعالى: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ والمضمضة والاستنشاق هنا فرض، لأنه سبحانه أضاف التطهير لجملة البدن، فيدخل كل ما يمكن الإيصال إليه ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾

(١) روى البخاري ومسلم عن حمران مولى عثمان بن عفان أن عثمان رضي الله عنه دعا بإناء، فأفرغ على كفيه ثلاث مرات فغسلها، ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ويديه إلى المرفقين ثلاثاً، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه ثلاث مرات، ثم قال: «رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا». وعن خالد أن النبي ﷺ: «رأى رجلاً يصلي، وفي قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء، فأمره النبي ﷺ أن يعيد الوضوء والصلاة» أخرجه أبو داود، فدلّت هذه الأحاديث على وجوب غسل الرجلين، بأمره ﷺ وفعله، فتنبّه والله يراعاك.

أي اقصدوا التراب الطاهر، إذا لم تجدوا الماء، فامسحوا بذلك التراب وجوهكم وأيديكم، للحدث الأصغر والأكبر، نيابةً عن الوضوء والغسل ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ ﴾ بما فرض عليكم من الوضوء، والغسل، والتيمم ﴿ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾ من ضيق في الامتثال ﴿ وَلَكِنْ يُرِيدُ ﴾ بذلك ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ أي ليطهركم من الذنوب، فإن الوضوء تكفير للذنوب والخطايا، لما روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه، خرجت كل خطيئة مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب»<sup>(١)</sup> فالطهارة معنوية بمعنى تكفير الذنوب لا بمعنى إزالة النجاسة لأن الحدث ليس نجاسة بلا خلاف ﴿ وَلِيُحَمِّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي ليتم بشرعية ما هو مطهرة لأبدانكم، نعمته عليكم في الدين، أوليتهم برُخصه إنعامه عليكم بعزائمه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمته بطاعتكم فيما أمركم به، ونهاكم عنه.

﴿ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ بالإسلام لتذكركم المنعم وترغبكم في شكره ﴿ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ يعني الميثاق الذي أخذه على المسلمين، حين بايعهم النبي ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وإضافة الميثاق إليه تعالى مع صدوره عنه ﷺ لكون المرجع إليه تعالى، كما نطق به قوله تعالى: ﴿ إِن الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في كل ما تأتون وما تذررون ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بخفياتها فيجازيكم عليها، فضلاً عن جليات أعمالكم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة رقم ٢٣٤ ولفظه: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجله خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب» فدلَّ الحديث على وجوب غسل الرجلين.

(٢) سورة الفتح، آية: ١٠.

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا  
يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَلَّا تَعْدِلُوْا اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى  
وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللّٰهُ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا  
وَعَمِلُوْا الصّٰلِحٰتِ لَهُمْ مَّغْفِرَةً وَّ اَجْرًا عَظِيْمًا ﴿٩﴾ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا  
وَكَذَّبُوْا بِآيٰتِنَاۗ اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ الْجَحِيْمِ ﴿١٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَلَّا تَعْدِلُوْا ﴾ أي لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين، على ترك العدل فيهم، فتعتدوا عليهم، بارتكاب ما لا يحلُّ كمثلية، وقذف، وقتل نساء وصبية، ونقض عهد، تشفياً مما في قلوبكم ﴿ اَعْدِلُوْا ﴾ أيها المؤمنون في أوليائكم وأعدائكم ﴿ هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى ﴾ أي العدل أقرب للتقوى، وإذا كان هذا العدل مع الكفار، فما ظنك بالعدل مع المؤمنين؟ ﴿ وَاتَّقُوا اللّٰهَ ﴾ أمر سبحانه بالتقوى اعتناء بشأنها، وتنبهها على أنها ملاك الأمر كله ﴿ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴾ فيجازيكم به، روي أنه لما فتحت مكة كلف الله المسلمين بهذه الآية، أن لا يكافئوا كفار مكة بما سلف منهم، ولذلك عفا الرسول ﷺ عنهم، وسمُّوا الطُّلقاء.

﴿ وَعَدَّ اللّٰهُ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَعَمِلُوْا الصّٰلِحٰتِ ﴾ من الواجبات والمندوبات التي من جملتها العدالة والتقوى ﴿ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ ﴾ لخطيئاتهم ﴿ وَاَجْرٌ عَظِيْمٌ ﴾ أي ثواب عظيم لأعمالهم.

﴿ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَكَذَّبُوْا بِآيٰتِنَاۗ ﴾ القرآنية التي من جملتها ما تليت من النصوص الناطقة بالعدل والتقوى ﴿ اُولٰٓئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ اَصْحٰبُ الْجَحِيْمِ ﴾ أي ملابسو النار المؤبدة.

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن  
يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ  
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ  
وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِن أَقَمْتُمُ  
الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ  
قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي  
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ  
السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ .

قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ تذكير  
لنعمة الإنجاء من الأشرار، الذين أرادوا الفتك بالمؤمنين وتذكير لهم نعمة  
إيصال الخير، وهو نعمة الإسلام وما يتبعها من الميثاق ﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ ﴾ أي  
قصد قوم ﴿ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ بأن يبسطوا بكم بالقتل والإهلاك،  
يقال: بسط إليه يده، إذا بطش به، وبسط إليه لسانه، إذا شتمه ﴿ فَكَفَّ  
أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ أي منع أيديهم أن تمت إليكم عقيب همهم بذلك والآية  
إشارة إلى ما أخرجه مسلم من حديث جابر: «أن المشركين رأوا أن رسول  
الله ﷺ وأصحابه بعسفان، قاموا إلى صلاة الظهر معاً، فلما صلوا ندموا ألا  
كانوا أكثبوا عليهم، وهمتوا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إلى صلاة العصر، فرد  
الله تعالى كيدهم، بأن أنزل صلاة الخوف»<sup>(١)</sup> وقيل: إشارة إلى ما رواه  
جابر أن النبي ﷺ نزل منزلاً، فتفرق الناس في العِصَاه - أي الشجر -  
يستظلون تحتها، فعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيفه  
فأخذه فسله، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: «من يمنعك مني؟ قال: الله

(١) أخرجه مسلم في باب صلاة الخوف ١/٥٧٤ .

تعالى فسقط السيف من يده...»<sup>(١)</sup> الحديث، ولا يخفى أن سبب النزول يجوز تعدده ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اتقوه في حقوق نعمته، ولا تُخلوا بشكرها ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ أي عليه تعالى خاصة دون غيره ﴿فَلْيَسْتَوِ كِلَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه تعالى يكفيهم في إيصال كل خير، ودفع كل شر.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كلام مستأنف، مشتمل على ذكر بعض ما صدر عن بني إسرائيل من الخيانة، ونقض الميثاق، وما أدى إليه من التبعات، مسوقاً لتقرير المؤمنين على ذكر نعمة الله، ومراعاة حق الميثاق، الذي واثقهم به، وتحذيرهم من نقضه ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ النقيب مشتق من النقب، وهو التفتيش ومنه قوله تعالى: ﴿فَنَقِبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ فسمي بذلك لتفتيشه عن أحوال القوم، ومعناه العريف، وهو شاهد القوم وضمينهم، روي أن بني إسرائيل لما فرغوا من أمر فرعون، أمرهم الله تعالى بالمشير إلى أريحا، وكان يسكنها الجبابرة وأمر جل شأنه موسى أن يأخذ من كل سبط كفيلاً عليهم، بالوفاء فيما أمروا به، فأخذ عليهم الميثاق، واختار منهم النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان، بعث النقباء يتجسسون الأخبار، ونهاهم أن يحدثوا قومهم فرأوا أجراماً عظاماً وبأساً شديداً فهابوا فرجعوا وحدثوا قومهم وعند ذلك قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ أي لبني إسرائيل ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعلم والقدرة والنصرة ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ أي بجمعهم، وتأخير الإيمان عن الصلاة والزكاة، لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما، مع ارتكابهم تكذيب بعض الرسل، ولمراعاة المقارنة بينه وبين قوله تعالى ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ أي نصرتموهم وقويتموهم، قال الراغب:

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٣٢٨/٧ ومسلم في صلاة المسافرين رقم ٨٤١. وانظر

تمام الحديث في جامع الأصول ٣٧٨/١١.

(٢) سورة المائدة، آية: ٢٤.

التعزيرُ: النصره مع التعظيم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ﴾ بالإنفاق في سبيل الخير ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو ما كان عن طيب نفس، من مالٍ حلال ﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي إذا فعلتم ما أمرتكم به، لأمحونَّ عنكم سيئاتكم ﴿وَلَا دَخَلْنَاكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ عطف على ما قبله، داخلٌ معه في حكمه ﴿فَمَنْ كَفَرَ﴾ أي برسلي، أو بشيءٍ ممَّا ذكر من الأمور ﴿بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ أي بعد الشرط المؤكد، المعلق بالوعد العظيم، وليس المراد بالكفر إحدائه بعد الإيمان، بل ما يعمُّ الاستمرار عليه، كأنه قيل: فمن اتصف بالكفر بعد ذلك ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي وسط الطريق الواضح، ضلالاً بيناً لا عذر معه أصلاً.

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً يَجْرِفُونَ الْكَلِمَةَ عَنْ مَوَاضِعِهَا وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيءُ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ﴾ أي بسبب نقضهم ميثاقهم المؤكد لا بشيءٍ آخر ﴿لَعْنَتُهُمْ﴾ طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، عقوبة لهم ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً﴾ بحيث لا تتأثر من الآيات والتذرير، ومعنى جعل قلوبهم قاسية، أن نقض الميثاق كان مبعداً لهم عن رحمة الله، ومقسياً لقلوبهم، حتى لم تؤثر فيها حجة وموعظة، وليس كما يزعمه الجبرية، من أنه شيء عاقبهم الله به، ولم يكن متسبباً عن أعمالهم الاختيارية، وإنما هو ناشئ عن ضلالهم، وهذا كما تقول لغيرك: أفسدت

الاختيارية، وإنما هو ناشئ عن ضلالهم، وهذا كما تقول لغيرك: أفسدت سيفك، إذا تركت تعاهده حتى صدىء، وجعلت أظفارك سلاحك، إذا لم يقصها ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا﴾ استئناف لبيان سبب قساوة قلوبهم، وهو الاجترأ على تغيير كلام الله تعالى، والافتراء عليه، والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة، وللدلالة على التجدد والاستمرار ﴿وَسُؤاً حَظّاً﴾ أي تركوا نصيباً وافراً، واستعمال النسيان بهذا المعنى كثير ﴿وَمَمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من التوراة، فقد حرّفوها فسقطت أشياء منها عن حفظهم، وأضاعوا كتابهم عندما أحرق البابليّون بلادهم ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي خيانة منهم، والمعنى أن الخيانة والغدر من عادتهم، وعادة أسلافهم، لا تزال ترى ذلك منهم ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ الذين آمنوا، منهم ﴿فَاعْتَفِ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ أي إن تابوا وآمنوا، أو عاهدوا والتزموا الجزية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للأمر، وحثٌّ على الامتثال به، وتنبيهٌ على أنّ العفو على الإطلاق من باب الإحسان.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْنَا أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ شروع في بيان قبائح النصارى إثر بيان قبائح اليهود أي وأخذنا من النصارى ميثاقهم، كما أخذنا ممن قبلهم من الإيمان بالله والرسول، وإنما نسب تسميتهم نصارى إلى أنفسهم، دون أن يقال: ومن النصارى إيذاناً بأنهم في قولهم: «نحن أنصار الله» بمعزل من الصدق، إنما هو تقوُّلٌ محضٌ منهم، وليسوا من نصرة الله في شيء، فإن ادعاءهم لنصرته تعالى، يستدعي ثباتهم على طاعته سبحانه ومراعاة ميثاقه ﴿فَسُؤاً﴾ إثر أخذ الميثاق ﴿حَظّاً﴾ نصيباً وافراً ﴿وَمَمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ من الإيمان بالله، والإيمان بالنبي ﷺ فنبدوه وراء ظهورهم، واتبعوا أهواءهم وتفرقوا ﴿فَاغْرَبْنَا﴾ أي ألزمتنا وألصقنا، والغراء الذي يلصق به الشيء، أي فألقينا ﴿بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي يتعادون إلى يوم القيامة، حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة، المؤدية إلى التفرق، فضمير بينهم لهم خاصة ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا

كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾ وعيد شديد بالعقاب، كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت، أي يجازيهم بما عملوه.

﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ﴾ التفات إلى خطاب الفريقين إثر بيان أحوالهما، ودعوة لهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ والقرآن الكريم، وإيرادهم بعنوان أهل الكتاب للمبالغة في التشنيع، فإن أهلية الكتاب من موجبات مراعاته وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ الإضافة للتشريف، والإيدان بوجوب اتباعه ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ حال من رسولنا، أي قد جاءكم رسولنا حال كونه مبيناً لكم على التدرج، حسبما تقتضيه المصلحة ﴿كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي التوراة والإنجيل، كبعثة الرسول ﷺ وآية الرجم، ونحوهما، مع استمرارهم على الكتم والإخفاء، أي بين لكم كثيراً من الذي تخفونه على الاستمرار، من الكتاب الذي أنتم المتمسكون به ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يخبر به إذ لم تدع إليه داعية دينية صيانة لكم مما فيه

افتضحكم ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ ﴾ عظيم، وهو نور لأنوار النبي المختار ﷺ وإلى هذا ذهب قتادة، واختاره الزجاج، وقال الجبائي: عني بالنور القرآن، لكشفه طرق الهدى واليقين، واقتصر على ذلك الزمخشري فالعطف في قوله تعالى: ﴿ وَكُتِبَ مُبِينٌ ﴾ لتنزيل المغايرة بالعنوان، منزلة المغايرة بالذات، والمبين من بَانَ اللازم بمعنى ظهر، فمعناه الظاهر الإعجاز.

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ ﴾ أي بما ذكر ﴿ مِنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ﴾ أي من كان يريد رضا الله ﴿ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ أي طرق السلامة من العذاب، أو سبل الله تعالى وهي شريعته ﴿ وَيُخْرِجُهُمْ ﴾ الجمع باعتبار المعنى ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ ظلمات فنون الكفر والضلال ﴿ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ﴾ إلى الإيمان والإسلام ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ هو أقرب الطرق المؤدي إلى الله سبحانه.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ أي لا غيره، وهم يعقوبية القائلون بأنه تعالى قد حلَّ في بدن إنسان أو في روحه، وأنه قد حل في بدن عيسى، ولا يزالون يقولون بألوهية المسيح، وبالتثليث ﴿ قُلْ ﴾ تبكيئاً لهم وإظهاراً لبطلان قولهم ﴿ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ استفهام للإنكار، أي إن كان الأمر كما تزعمون، فمن يمنع عن قوة الله شيئاً ﴿ إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾؟ ومن حق من يكون إلهاً أن لا يتعلق به قدرة غيره، فضلاً عن أن يعجز عن دفع شيء منها، فلما كان عجزه بيناً، ظهر كونه بمعزل مما تقولون في حقه!! ومن الغريب أنهم قالوا إن شر نوع الإهلاك، وهو الصلب، نزل بالمسيح، ومع ذلك يعتقدون بألوهيته، والمراد بالإهلاك الإماتة مطلقاً، وإظهار المسيح في مقام الإضمار لبيان أن الكل تحت قهره وملكوته، وأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات، في كونه عرضة للإهلاك ﴿ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي له تعالى وحده، ملكٌ

جميع الموجودات، والتصرف المطلق فيها، إيجاداً وإعداماً لا لأحد سواه ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ جملة مسوقة لبيان بعض أحكام الألوهية، على وجه يزيح ما اعتراهم من الشبهة في أمر المسيح، لولادته من غير أب، وخلق الطير، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه، أي يخلق ما يشاء فتارة من غير أصل، كخلق السماوات والأرض، ومن غير جنسه كخلق آدم، أو من أنثى وحدها، كخلق عيسى، وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر، كخلق الطير على يد عيسى معجزة له، فيجب أن ينسب كله إلى الله تعالى، لا إلى من أجري ذلك على يده ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ۗ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۗ قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة، روي عن ابن عباس أنه قال إن النبي ﷺ دعا جماعة من اليهود إلى دين الإسلام، وخوفهم بعقاب الله تعالى، فقالوا: كيف نخوفنا به، ونحن أبناء الله وأحباؤه؟ وقالت النصارى مثل ذلك قبلهم، فأنزل الله هذه الآية ردّاً على الفريقين ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وفيها تكذيبٌ لهم جميعاً، ومقصود الفريقين، أن لهم فضلاً عند الله تعالى، على سائر الخلق، فردّ الله تعالى عليهم ذلك، وقال لرسول الله ﷺ ﴿قُلْ﴾ إلزاماً لهم ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي فإن صح ما زعمتم، فلم يعذبكم بذنوبكم؟ فإن من كان

بهذا المنصب، لا يفعل ما يوجب تعذيبه، وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسوخ، وقد اعترفتكم بأنه تعالى سيعذبكم في الآخرة وقلتم: ﴿لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ مدة عبادتكم العجل، هل رأيتم والداً يعذب ولده؟ وهل تطيب نفس محبب أن يعذب حبيبه في النار؟ وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾ عطف على مقدر أي ليس الأمر كذلك بل أنتم بشر ﴿مِمَّنْ خَلَقَ﴾ أي بشر كائن من جنس خلق الله تعالى، من غير مزية لكم عليهم ﴿يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أن يغفر له من أولئك المخلوقين، وهم الذين آمنوا به تعالى وبرسوله ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أن يعذبه منهم، وهم الذين كفروا بالله وبرسوله مثلكم ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات، لا ينتمي إليه سبحانه شيء منها، إلا بالعبودية تحت ملكوته، يتصرف فيهم كيف يشاء، فأني لهم ادعاء ما زعموا؟! ﴿وَأَلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ في الآخرة خاصة لا إلى غيره، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ تكرير للخطاب بطريق الالتفات، والالطف في الدعوة ﴿فَدَجَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ الشرائع والأحكام، الدينية، وإنما حذف اعتماداً على الظهور، إذ من المعلوم أن ما بينه الرسول هو الشرائع والأحكام، والجملة في موضع الحال أي جاءكم رسولنا مبيناً لكم ﴿عَلَىٰ فَرَقٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي على حين فتورٍ من إرسال الرسل، وانقطاع زمان الوحي، والفترة ما بين الرسولين وهي انقطاع بعثهم، واختلف في مدتها بين نبينا ﷺ وعيسى عليه السلام، فقال قتادة: خمسمائة وستون سنة، وقال الكلبي: خمسمائة وأربعون ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي لئلا تقولوا معتذرين من تفريطكم، في أحكام الدين يوم القيامة ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ وقد انطمست آثار الشريعة السابقة، والفناء في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ تفصح عن محذوف، والتقدير: لا تعتذروا فقد جاءكم وتونين «بشير» و«نذير» للتفخيم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على إرسال الرسل ترى، وعلى الإرسال بعد الفترة.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مِمَّا تَرْضَوْنَ وَمَا لَكُمْ لِمَا تُوْتُوا أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ يَنْقُورِ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ آذَانِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ إِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبِ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية نقضهم للميثاق، ليُعلم أن مكابرة الحق، ومعاودة الرسول، خُلُقٌ مستمر من أخلاقهم، أي اذكر أيها الرسول للناس حين قال موسى لقومه، بعد أن أنقذهم من ظلم فرعون، ناصحاً لهم: ﴿ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴾ أي من أقربائكم، من أولاد يعقوب، والمراد بهم موسى، وهرون، ويوسف، وغيرهم ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ بعد أن كانوا عبيداً للقبط، فهي نعمة جليلة، نعمة الحرية والاستقلال، حتى صاروا كلهم كأنهم ملوك في السعة والترف ﴿ وَمَا لَكُمْ لِمَا تُوْتُوا أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها والمراد بالعالمين عالمو زمانهم.

﴿ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ كرر النداء، اهتماماً بشأن الأمر،

ومبالغة في حثهم على الامتثال، والأرض المقدسة هي كما روي عن ابن عباس وابن زيد: «بيت المقدس» وقال الزجاج: دمشق وفلسطين ومعنى المقدسة: المطهرة أو المباركة، سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء، ومساكن المؤمنين ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي أنها تكون مسكناً لكم، إن أمتم وأطعتم، لقوله تعالى بعدما عصوه ﴿قَالَ فَإِنهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِدُوا عَلَيَّ آذَانِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ الأدبار: جمع دُبُر أي: لا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة، فترجعوا خاسرين، وهذا يدل على اشتراط الكُتُب ﴿التي كتب الله لكم﴾ بالمجاهدة المترتبة على الإيمان والطاعة.

﴿قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ متغلبين، لا تتأتى مقاومتهم، والجَبَّارُ: فعَّال، هو الذي يجبر الناس على ما يريد، والجبار من أسماء الله الحسنى، فيه معنى العظمة والقدرة، مدحٌ للخالق، وذمٌ للمخلوق، وما روي في بعض التفاسير من وصف هؤلاء الجبارين فأكثره من الخرافات الإسرائيلية، بثها اليهود منها ما حكي عن بعضهم أنه قال: استظلَّ سبعون رجلاً من قوم موسى في قحف<sup>(١)</sup> رجل من العمالقة، وحكي عن ابن أسلم قال: بلغني أنه رؤيت ضبع وأولادها، رابضة في فِجَاج عين رجل منهم، وأخبار عوج بن عُتُق، وغير ذلك، ولمَّا قرب موسى حدود الأرض المقدسة، وأمرهم بدخولها أبوا واعتذروا بضعفهم، وقوة أهل تلك البلاد، وقالوا: ﴿وإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنهَا﴾ من غير جهد من قبلنا، فإنه لا طاقة لنا بإخراجهم منها ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا﴾ بسبب من الأسباب، التي لا تعلق لنا بها ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ حينئذ تلك البلاد، وكأنهم يريدون أن يخرجهم منها بقوة الخوارق، كما كان كل ما يحتاجون إليه، وجهلوا السنة الإلهية.

(١) القِحْفُ: ما انفلق من جمجمة الإنسان، أي جلس سبعون في طرف من جمجمة أحدهم، وكلُّ هذه خرافات وأساطير، وإنما وصفوا بالجبروت لقوتهم وشدَّتْهم وبسطة أجسامهم.

﴿ قَالَ رَجُلَانِ ﴾ روي عن ابن عباس أنهما: يوشع بن نون، وكالب ﴿ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ أي يخافون الله، ويتقونه في مخالفة أمره، وفيه تعريض بأن بعضهم لا يخافونه تعالى، بل يخافون العدو ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ بالإيمان، والتثبيت، وربط الجأش، أي قالا مخاطبين لهم ومشجعين ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ﴾ أي باب بلدهم، أي باغتهم، وضاعطوهم في المضيق، وامنعوهم من الاستعداد، لئلا يجدوا في الحرب مجالاً ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ ﴾ أي باب بلدهم وهم فيه ﴿ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ من غير حاجة إلى القتال، فإننا قد رأيناهم، قلوبهم ضعيفة وإن كانت أجسامهم عظيمة، فلا تخشوهم واهجموا عليهم في المضايق، فإنهم لا يقدرّون على الكرّ والفر، وقيل: إنما علما ذلك، من سننه تعالى في نصره رسله ﴿ وَعَلَى اللَّهِ ﴾ تعالى خاصة ﴿ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ به تعالى ومصديقين لوعده، فإن ذلك يوجب التوكل.

﴿ قَالُوا ﴾ غير مبالين بهما مخاطبين لموسى عليه السلام إظهاراً لإصرارهم على القول الأول، وتصريحاً بمخالفتهم له ﴿ يَمْوَسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا ﴾ أرض الجبارة وهم في بلدهم ﴿ أَبَدًا ﴾ دهرًا طويلًا ﴿ مَا دَامُوا فِيهَا ﴾ أي في تلك الأرض ﴿ فَأَذْهَبَ ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فاذهب ﴿ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَقْتِلَا ﴾ أي فقاتلاهم، وإنما قالوا ذلك استهزاء برسولهم، وعدم مبالاة بأمره. ﴿ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ وأرادوا بذلك عدم التقدم، ولم يذكروا أخاه هارون ولا الرجلين، كأنهم لم يعبأوا بقتالهم.

﴿ قَالَ ﴾ موسى لما رأى منهم ما رأى، على طريقة البثّ والحزن ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ أي لا أملك إلا نفسي، وإن أخي لا يملك إلا نفسه، فليس قوله عليه السلام ردًّا لما أمر الله تعالى به، بل الشكوى إلى الله تعالى، مع رقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة ﴿ فَأَفْرَقَ بَيْنَنَا ﴾ يريد نفسه وأخاه ﴿ وَبَيَّنَّ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي الخارجين

عن طاعتك، المصريين على عصيانك، بأن تحكم لنا ما نستحقه، وعليهم ما يستحقونه كما هو المروي عن ابن عباس والضحاك.

﴿ قَالَ ﴾ الله عزَّ وجلَّ ﴿ فَإِنَّهَا ﴾ أي الأرض المقدسة ﴿ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي لا يدخلونها ولا يملكونها، لأن دخولها مشروط بالإيمان والطاعة، وحيث نكثوا على أديبارهم حرموا، وانقلبوا خاسرين ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ فالمراد بتحريمها عليهم، أنه لا يدخلها أحدٌ منهم في هذه المدة، ﴿ يَنْهَوْنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي يسرون فيها متحيرين، يقال: نَاهَ يَتِيهِ تِيهًا وتيهانًا ذهب متحيراً، وكان ذلك من خوارق العادات، إذ التحير في مثل تلك المسافة هذه المدة الطويلة، مما تحيله العادة، وأكثر المفسرين على أن موسى وهارون كانا معهم في التيه، لكن لم ينلها من المشقة ما نالهم، وكان ذلك لهما روحاً وسلامة كالنار لإبراهيم ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي فلا تحزن عليهم، لأنهم أحقاء بذلك لفسقهم، وهذه القصة مفصلة في التوراة، وهي ناعيةٌ عليهم عصيانهم وطغيانهم.

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِيَأْتِي وَإِنَّمْكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُؤِيلَتِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ ضمير عليهم يعود على بني إسرائيل كما هو الظاهر وقيل: هم هذه الأمة أي اتل يا رسول الله على قومك ﴿ نَبَأً

أَبَتَىٰ آدَمَ ﴿ هابيل عليه الرحمة، وقابيل عليه ما يستحقه، وكانا بإجماع المفسرين ابني آدم عليه السلام لصلبه، وكان من قصتهما ما أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود أنه كان لا يولد لآدم إلاّ ولد وجارية، وكان يزوج غلام هذا البطن جارية بطن الآخر، وقد جعل افتراق البطون، بمنزلة افتراق النسب للضرورة، ولد له ابنان: هابيل وقابيل، وإن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه، فأمره أبوه فأبى، وكانت توأمة قابيل أجمل، فحسده عليها أخوه وسخط، وأراد أن يحظى هو بها، فقال لهما آدم: قُربا قرباناً، فمن أيكما قُبل تزوّجها ففعلا، فنزلت نارٌ على قربان هابيل فأكلته، ولم تتعرض لقربان قابيل، فازداد قابيل حسداً وسخطاً، وفعل ما قصّه علينا القرآن ﴿يَا لِحَقِّ﴾ أي تلاوة ملتبسة بالصدق والصحة ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ إذ قُرب كل واحد منهما قربانه ﴿فَنَقَّبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ قربانه وهو هابيل ﴿وَكَمْ يُنْقَبَلُ مِنَ الْآخِرِ﴾ قربانه وهو قابيل، لأنه سخط حكم الله ﴿قَالَ﴾ أي قابيل ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ قال هابيل: ولم تقتلني؟ قال قابيل: لأن الله قبل قربانك، وتريد أن تنكح أختي ﴿قَالَ﴾ هابيل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ﴾ أي القربان ﴿مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ في ذلك بإخلاص النية فيه لله تعالى، ومراده من هذا الجواب أن يقول: إنك إنما أتيت من قبل نفسك، لا من قبلي، فلم تقتلني؟ ولم يصرح ذلك حذراً من تهيج غضبه، وحملاً له على التقوى، والإفلاع عما نواه، ثم صرح بتقواه على وجه يستدعي سكون غيظه، لو كان له عقل حيث قال:

﴿لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ أي والله لئن باشرت قتلي حسبما أوعدتني به، وتحقق ذلك منك، ما أنا فاعل مثله لك في وقت من الأوقات، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قيل كان هابيل أقوى منه، ولكن تحرّج عن قتله له، خوفاً من الله تعالى، وعن ابن عباس أن المعنى: لئن بسطت إليّ يدك على سبيل الظلم والابتداء، ما أنا بباسط إليك يدي على وجه الظلم والابتداء، وفي قوله

تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ الخ. تعليل للامتناع، وإرشاد قابل إلى خشية الله، وتعريض بأن القاتل لا يخاف الله تعالى:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ تعليل ثانٍ للامتناع عن المعارضة والمعنى: إني أريد بامتناعي عن التعرض لك، أن ترجع بإثم قتلي وبإثمك الذي لأجله لم يتقبل قربانك ﴿فَتَكُونَنَّ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي تكون بما حملت من الإثمين من أهل النار، لأنك حينئذ تكون ظالماً ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا من كلام هايبيل على ما هو الظاهر أي ودخول النار جزاء كل ظالم فاجر، عاصي لأوامر الله، وهو عقاب من لم يرض بحكم الله تعالى.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أي سهّلت وزيّنت له نفسه الشريفة قتل أخيه الشقيق، فقتله فخر وشقي، والتصريح بأخوته، لكمال تقبيح ما سولته نفسه ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ خسر الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فقد أسخط والديه، وبقي بلا أخ، وأما آخرته فأسخط ربه وصار مستحقاً للعقاب، أخرج البخاري عن ابن مسعود قال: قال ﷺ: «لا تُقتل نفسٌ ظالماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، لأنه أول من سنّ القتل»<sup>(١)</sup> وروي أنه لما قتله تركه بالعراء، لا يدري ما يصنع به، حتى رأى طيراً يقتل طيراً، ثم يحفر حفرةً ويضعه فيها، ففعل بأخيه مثل ذلك.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء فدفن شيئاً، فتعلم منه والمتبادر أن الغراب أطال البحث، لأن المضارع يفيد الاستمرار، فلما رأى قابيل فعل الغراب زالت حيرته ﴿قَالَ يَوَيْلَئِي﴾ كلمة جزع وتحسر، والألف فيها بدل من ياء المتكلم، والمعنى: يا ويلتي احضري فهذا أوانك، والويل الهلكة تستعمل

(١) الحديث أخرجه البخاري في الديات ١٦٩/١٢ ومسلم في القسامة رقم ١٦٧٧ وفي رواية البخاري: «ليس من نفس تقتل ظالماً.» الحديث.

عند وقوع الداهية ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أي عن أن أكون ﴿مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ فأورى سوءة أخى ﴿تعجب من عدم اهتدائه، إلى ما اهتدى إليه الغراب﴾ ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ على قتله، لما كابد فيه من التحير في أمره وحمله، وعدم الظفر بما فعله من أجله، والعبرة في الآية، أن الحسد كان منار أول جناية في البشر، ولا يزال هو الذي يفسد على الناس أمر اجتماعهم، وينغص عليهم عيشهم.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ ذلك إشارة إلى عظم شأن القتل، وإفراط قبحه ﴿كَتَبْنَا﴾ أي قضينا ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ خصهم بالذكر لما أن الحسد كان منشأ لذلك الفساد، وهو غالب عليهم، ولأن التوراة أول كتاب نزل فيه تعظيم القتل، ومع ذلك كانوا أشد طغياناً فيه، حتى قتلوا الأنبياء عليهم السلام ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي الشأن ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا﴾ واحدة من النفوس الإنسانية ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي فساد فيها يوجب هدر الدم، كالشرك، والارتداد، وقطع الطريق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ومناط التشبيه: اشتراط الفعلين في

هتك حرمة الدماء، وتجزؤء الناس على القتل، واستجلاب غضب الله وعذابه ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي تسبب لبقاء نفس واحدة، إما بنهي قاتلها عن قتلها، أو استنقاذها من سائر أسباب الهلكة بوجه من الوجوه، كالحرق، والغرق، والهدم ونحوها ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وجه التشبيه ظاهر، والمقصود تهويل أمر القتل، وتفخيم شأن الإحياء، بتصوير كل منهما بصورة لاثقة به، في إيجاب الرهبة والرغبة، فالآية الكريمة تعلمنا ما يجب من وحدة البشر، ومن وظيفة كل منها على حياة الجميع ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ إنما لم يقل ولقد أرسلنا، للتصريح بوصول الرسالة إليهم، أي وبالله لقد جاءتهم رسلنا بالآيات الواضحة، بتقرير ما كتبنا عليهم، تأكيداً بوجوب مراعاتها ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي من بعد ما ذكر من التوضيح، وتأكيد الأمر ﴿فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ كثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولا يباليون به، وذكر الأرض للإيدان بأن إسرافهم انتشر شره في الأرض حتى عمّ وطمّ.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يحاربون أولياءهما وهم المسلمون، جعل محاربتهم محاربتهم تعظيماً لشأن المسلمين، والمراد به ههنا قطع الطريق، والمكابرة باللصوصية ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يسعون مفسدين، نزلت في قُطَاعِ الطريق وهذا قول أكثر الفقهاء، والفساد ضد الصلاح، فإزالة الأمن عن الأنفس، والأموال، ومعارضة تنفيذ الشريعة ونحوها، كل ذلك إفساد في الأرض، ولما كانت المحاربة والفساد على مراتب، شرعت لكل مرتبة عقوبة معينة فقال سبحانه ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ أي حداً إن أفردوا القتل، ولو عفا الأولياء لا يلتفت إليه، لأنه حق الشرع ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ مع القتل إذا جمعوا بين القتل والأخذ للمال، والصلب قبل القتل، بأن يصلبوا أحياء، والأولى أن يكون على الطريق في ممر الناس، ليكون ذلك زجراً للغير ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ أي أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى، إن اقتصرنا على أخذ المال، وفي ظاهر الرواية أن الإمام مخير إن شاء اكتفى بالصلب، وإن شاء قطع أيديهم

وأرجلهم من خلاف ﴿ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ إن لم يفعلوا غير الإخافة، والسعي للفساد، والمراد من النفي عندنا هو الحبس، فإنه نفي عن وجه الأرض، وعند الشافعي من بلدٍ إلى بلدٍ آخر، والعرب تستعمل النفي للسجن، قال بعض المسجونين:

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا      فَلَسْنَا مِنَ الْأَمْوَاتِ فِيهَا وَلَا الْأَحْيَاءِ  
إِذَا جَاءَنَا السَّجَانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ      عَجِبْنَا وَقَلْنَا جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا

قال مكحول: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من حبس من هذه الأمة، وقال أحسبه حتى أعلم منه التوبة، ولا أنفيه إلى بلدٍ آخر فيؤذبه ﴿ ذَلِكَ ﴾ ما فُصِّل من الأحكام ﴿ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لعظم ذنوبهم، واقتصر في الدنيا على الخزي، مع أن لهم عذاباً أيضاً، وفي الآخرة على العذاب مع أن لهم فيها خزيّاً أيضاً، لأن الخزي في الدنيا أعظم من عذابها، والعذاب في الآخرة أشد من خزيها، والآية أقوى دليل لمن يقول: إن الحدود لا تسقط العقوبة، والقائلون بالإسقاط يستدلون بقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «من ارتكب شيئاً فعوقب به كان كفارةً له»<sup>(١)</sup>، فإنه يقتضي سقوط الإثم عنه، وأن لا يعاقب في الآخرة، وهو مشكل مع هذه الآية، وأجاب النووي بأن الحدَّ يكفر به عنه حق الله تعالى، وأما حقوق العباد فلا، وههنا حقان، حقُّ الله، وحق العبد.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ﴾ استثناء مخصوص بما هو حق الله تعالى، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري في التفسير ٦٣٨/٨ ولفظه: عن عبادة بن الصامت قال: «كنا عند النبي ﷺ فقال: أتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تنزوا، ولا تسرقوا؟ وقرأ الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ فمن وقى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له... » الحديث.

وأما ما هو من حقوق الأولياء من القصاص ونحوه، فإليهم ذلك، إن شأؤوا عفواً وإن أحبوا استوفوا، وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة، يدل على أنها بعد القدرة لا تسقط الحد، وإن أسقطت العذاب والآية في قطاع المسلمين، لأن توبة المشرك، تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نُقْبِلُ مِنْهُمْ وَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ مَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ .

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ لما ذكر الله تعالى عظم القتل والفساد، أمر المؤمنين بأن يتقوه في كل ما يأتون وما يذرون، ومن جملتها القتل والفساد ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ ﴾ أي اطلبوا لأنفسكم ثوابه والزلفى منه ﴿ الْوَسِيلَةَ ﴾ أي ما تتوسلون به من فعل الطاعات، وترك المعاصي والوسيلة ما يُتوسل ويتقرب به إلى الغير، توَسَّلَ إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل، وفي القرآن الكريم اسمٌ لكل ما يُتوصل به إلى مرضاة الله تعالى، من علم، وعمل، وفي الحديث: «اللهم آت محمداً الوسيلة» هي منزلة في الجنة، بيّن تعالى بهذه الآية للمؤمنين، بأن مجامع التكليف محصورة في نوعين: أحدهما ترك المنهيات وإليه أشار بقوله: ﴿ اتقوا الله ﴾ وثانيهما فعل المأمورات وإليه أشار بقوله: ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ وهي القربة لا غير،

وحيث كان في كل منهما كلفة ومشقة، عَقِبَ الأمر بهما بقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ بمحاربة أعدائه البارزة والباطنة بما أمكنكم في طاعته تعالى، وبكف أنفسهم عن الأهواء الفاسدة ﴿لَمَّا كُمُتُمْ تَفْلِحُونَ﴾ بنيل النعيم المؤبد، والخلاص من كل نكد، وتقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة، أقرب إلى الإجابة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كلام مبتدأ مسوق لتأكيد وجوب الامتثال بالأوامر السابقة ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي كل واحد منهم ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من أصناف الأموال ﴿جَمِيعًا﴾ توكيد للموصول ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ وفائدة «معه» التصريح بفرض كونهما لهم بطريق المعية، لا بطريق التعاقب ﴿لَيَقْتَدُوا بِهِ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ متعلق بالافتداء أي لو أن لهم كل ذلك، لدفع العذاب الواقع يومئذ ﴿مَا نُقِيلَ مِنْهُمْ﴾ ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تصريح بالمقصود منه، وبيان لهوله ولشدته.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ﴾ الإرادة بمعنى التمني أي يتمنون ذلك ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ فإيثار الجملة الاسمية لبيان سوء حالهم، باستمرار عدم خروجهم منها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم، تصريح بعدم تناهي مدته، بعد بيان شدته، وهذه الآية كما ترى في حق الكفار، فلا تنافي القول بالشفاعة لعصاة المؤمنين في الخروج، كما لا يخفى على من له أدنى إيمان، روي عن جابر رضي الله عنه قال: «يخرج قومٌ من النار بالشفاعة»<sup>(١)</sup> قيل لجابر: يقول الله تعالى: ﴿وما هم بخارجين منها﴾ قال اتل أول الآية ﴿إن الذين كفروا﴾ فهي في الكفار لا في المؤمنين.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ شروع في بيان حكم السرقة الصغرى، بعد بيان أحكام السرقة الكبرى بقطع الطريق، والسرقة: أخذ مال الغير خفية، وصرح بالسارقة مع أن المعهود في الكتاب والسنة إدراج النساء في

(١) طرف من حديث طويل رواه الشيخان في باب الشفاعة للمؤمنين.

الأحكام الواردة، لمزيد الاعتناء بالبيان، والمبالغة في الزجر ﴿فَاقْطَعُوا أَيَدِيَهُمَا﴾ أي أيماهما كما يفصح عنه قراءة ابن مسعود «فاقطعوا أيماهم»، واليد اسم لتمام الجارحة، والجمهور على أن المقطع هو الرسغ، فقد أخرج البغوي أنه ﷺ أتى بسارق، فأمر بقطع يمينه منه، والمخاطب بقوله سبحانه: ﴿فاقطعوا﴾ ولاة الأمور كالسلطان، ومن أذن له في إقامة الحدود، وإنما توجب القطع إذا كان الأخذ من حِرْزٍ، والمأخوذ يساوي عشرة دراهيم فما فوقها، وقُطعت اليدُ لأنها آلة السرقة، ولم تقطع آلة الزنا تفادياً عن قطع النسل، روى الشيخان عن عائشة قالت: قال ﷺ: «إنما هلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»<sup>(١)</sup> ﴿حِرَازٌ يَمَّا كَسَبَا﴾ أي بسبب كسبهما من السرقة ﴿نَكَالًا﴾ أي عقوبة ﴿مَنْ أَلَّه﴾ تعالى عبرة لغيرهما ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾<sup>(٢)</sup> غالب على أمره، يمضيه كيف يشاء، من غير ند ينازعه ولا ضد يمانعه ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرائعه وفرائضه، لا يحكم إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿فَمَنْ تَابَ﴾ أي من السُّرَّاقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ﴿مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ الذي هو سرقة، والتصريح به لبيان عظم نعمته تعالى، بتذكير عظم جنايته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أمره بأن يرد مال السرقة، ويعزم على ترك المعاودة، ويستغفر ويتوب ﴿فَارَبَّكَ اللَّهُ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة، وأما

(١) الحديث رواه البخاري في الحدود ٧٦/١٢ ومسلم رقم ١٦٨٨ وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٥٦١/٣.

(٢) حكاية لطيفة قال الأصمعي: كنت أقرأ القرآن، وبيجاني أعرابي جاء من البادية يسمع ما أقرأ، فقرأت هذه الآية: ﴿والسارق والسارقة...﴾ فقلت: ﴿والله غفور رحيم﴾ سهواً، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ فقلت: كلام الله عز وجل، قال: ليس هذا كلام الله، أعد ما قرأت، فأعدتها فتنهت فقلت في ختامها: ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال: الآن أصبت، هذا كلام الله، فقلت له: كيف عرفت؟ فقال الأعرابي: عز، فحكمت، فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع!!.

القطع فلا تسقطه التوبة، لأن فيه حق المسروق منه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مبالغ فيهما، وفيه إشارة إلى أن قبول التوبة فضلٌ من الله تعالى.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد صالح للخطاب، والمراد به الاستشهاد على قدرته تعالى على التصرف الكلي من التعذيب والمغفرة حسبما تقتضيه مشيئته ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ قدم التعذيب لأن التعذيب للمصّر على السرقة، والمغفرة للتائب منها، فجاء هذا اللاحق على ترتيب السابق ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على ما ذكر من التعذيب والمغفرة.

﴿يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ خوطب ﷺ بعنوان الرسالة للتشريف<sup>(١)</sup>، والإشعار بما يوجب عدم الحزن ﴿لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ﴾

(١) وفي هذا التشريف، تعليمٌ من الله وتأديب لعباده المؤمنين، أن يعظّموا رسول الله ﷺ عند=

**فِي الْكُفْرِ** إِيْثَارُ كَلِمَةِ «فِي» عَلَى كَلِمَةِ «إِلَى» لِلإِيْمَاءِ إِلَى أَنَّهُمْ مُسْتَقْرُونَ فِي الْكُفْرِ، لَا يَبْرَحُونَهُ، أَي لَا تَحْزَنُ وَلَا تَبَالُ تَهَافُتُهُمْ فِي الْكُفْرِ بِسُرْعَةٍ، وَالْغَرَضُ مِنْهُ مَجْرَدُ التَّسْلِيَةِ عَلَى أَبْلَغِ وَجْهِ **﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾** بَيَانٌ لِلْمَسَارِعِينَ فِي الْكُفْرِ، وَالْبَاءُ مُتَعَلِّقَةٌ بِقَالُوا **﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾** أَي مِنْ الْمُنَافِقِينَ **﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَسَكَّعُوا لِلكَذِبِ﴾** أَي هُمْ سَمَاعُونَ، وَالضَّمِيرُ لِلْفَرِيقَيْنِ أَي مَبَالِغُونَ فِي سَمَاعِ الكَذِبِ، وَفِي قَبُولِ مَا يَفْتَرِيهِ أَحْبَارُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ مِنَ الكَذِبِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَتَحْرِيفِ كِتَابِهِ، فَإِنْ كُونَهُمْ سَمَاعِينَ لِّلْكَذِبِ، مِمَّا يَقْتَضِي عَدَمَ الْمَبَالَاةِ بِهِمْ، فَهَمْ عَيُونَ وَجَوَاسِيسٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، كَالَّذِينَ يَفْتَرُونَ الكَذِبَ عَلَى الإِسْلَامِ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَمَعْنَى **﴿سَمَاعُونَ لِّلْكَذِبِ﴾** يَسْمَعُونَ مِنْكَ لِيَكْذِبُوا عَلَيْكَ، وَلِيَحْزَنُوا مَا سَمِعُوا مِنْكَ، بِالزِّيَادَةِ وَالتَّقْصَانِ وَالتَّبْدِيلِ **﴿سَكَّعُوا لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾** أَي سَمَاعُونَ كَلَامَهُ ﷺ لِيَكْذِبُوا عَلَيْهِ، لِأَجْلِ قَوْمٍ آخَرِينَ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ عَيُونَ عَلَيْهِ ﷺ لِأَوْلَئِكَ الْقَوْمِ **﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾** أَي لَمْ يَقْصِدُواكَ بِالْإِتْيَانِ، بَلْ قَصَدُوا السَّمَاعَ لِّلْكَذِبِ فِيهِ **﴿يُحْرِفُونَ أَلْفَكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾** وَصَفُوا بِاسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى التَّحْرِيفِ، بَيَانًا لِإِفْرَاطِهِمْ فِي الْعَتْوِ، وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، أَي يَمِيلُونَهُ عَنِ مَوَاضِعِهِ بَعْدَ أَنْ وَضَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا **﴿يَقُولُونَ﴾** أَي يَقُولُونَ لِأَتْبَاعِهِمُ السَّمَاعِينَ لَهُمْ **﴿إِنْ أُوْتِينْتُمْ﴾** مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ ﷺ **﴿هَذَا فَحْذَرُوهُ﴾** وَاعْمَلُوا بِمَوْجِبِهِ فَإِنَّهُ الْحَقُّ **﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾** بَلْ أُوْتِيمُ غَيْرِهِ **﴿فَاحْذَرُوا﴾** قَبُولَهُ، رَوَى عَنْ ابْنِ عَمْرِو أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،

= مَخَاطَبَتِهِ وَالتَّحَدُّثِ مَعَهُ، فَيَخَاطَبُونَهُ بِلَفْظِ فِيهِ إِجْلَالٌ وَتَوْقِيرٌ، كَقَوْلِهِمْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَأَلَّا يَنَادُوهُ بِاسْمِهِ الْعِلْمِ يَا مُحَمَّدَ، كَمَا كَانَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ الْجَفَاةِ يَقْفُونَ عِنْدَ بَابِ مَنْزِلِهِ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدَ اخْرُجْ إِلَيْنَا، فَتَنْزِلُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ نَاعِيًا عَلَيْهِمْ هَذَا الصَّنِيعَ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجْرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾** وَجَاءَ النَّهْيُ لِجَمِيعِ النَّاسِ بِالتَّحْذِيرِ مِنْ ذَلِكَ: **﴿لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾** وَحَقًّا إِنَّهُ لَتَوْجِيهِ كَرِيمٌ لِتَعْلِيمِهِمُ الْأَدَبَ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ.

فذكروا له أن امرأة منهم ورجلاً زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأنهما؟ فقالوا نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتُم، إنَّ فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما النبي ﷺ فرجما<sup>(١)</sup> ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ أي ضلّالته أو فضيخته ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ فلن تستطيع له من الله شيئاً في دفعها ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من المنافقين واليهود ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ أن يُظَهَرَ قُلُوبُهُمْ ﴿من رجس الكفر والضلالة، لانهماكهم فيها، وإصرارهم عليها بسبب اختيارهم، وقبح صنيعهم﴾ ﴿هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أما المنافقون فخزيهم فضيحتهم، بظهور نفاقهم، وازدياد غمهم بمزيد انتشار الإسلام، وقوة شوكتهم، وأما خزي اليهود فالذلة والجزية وظهور كذبهم ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ مع الخزي الدنيوي ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُقَادِرُ قدره، وهو الخلود في النار في الجملتين للمنافقين واليهود جميعاً، وتكريره لزيادة التقرير.

﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ ذَكَرَهُ تَأْكِيداً لِمَا قَبْلَهُ وَتَمْهيداً لِمَا بَعْدَهُ ﴿أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ السُّحْتُ: بسكون الحاء وضمها الحرام، نزلت في حكام اليهود، كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل لحم نبت من السُّحْتِ، فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»<sup>(٢)</sup> وأخرج عبد ابن حميد عن علي كرم الله وجهه، أنه سُئِلَ عن السُّحْتِ، فقال الرشاء - أي

(١) الحديث أخرجه الشيخان، البخاري ١٤٨/١٢ في المحاربين، وفي تفسير سورة آل عمران ٢٢٤/٨ ومسلم في الحدود رقم ١٦٩ والترمذي رقم ١٤٣٦ في الحدود أيضاً.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/٣٢١ ورواه الترمذي رقم ٦١٤ بلفظ «يا كعب بن عُجرة، إنه لا يربو لحم نبت من سُّحْتٍ إلا كانت النار أولى به».

الرشوة - ف قيل له في الحكم؟ قال: «ذاك الكفر»<sup>(١)</sup> ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ أي فإن جاؤوك متحاكمين إليك، فيما شجر بينهم من الخصومات ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وهذا تخيير له ﷺ ف قيل: هذا في أمر خاص، هو ما ذكر من الزنا، وقيل هو عام في جميع الحكومات، ثم اختلفوا فمن قائل إنه ثابت، وهو قول عطاء وقتادة، وقائل إنه منسوخ، وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة، وأهل الذمة محمولون على أحكام الإسلام في البيوع، وسائر العقود، إلا في بيع الخمر والخنزير، فإنهم يقرون عليه، ويمنعون من الزنا فإنهم نهوا عنه، ولا يرحمون، وتامم التفصيل في الفروع ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ تقديم حال الإعراض للمسارعة إلى بيان أنه لا ضرر فيه، حيث كان مظنة الضرر، لما أنهم إذا أعرض عنهم شق ذلك عليهم، فتشتد عداوتهم، فأمن الله تعالى رسوله بقوله: ﴿فَكَانَ يَضْرُوكَ﴾ بسبب ذلك ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر، فإن الله يحفظك من ضررهم ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل الذي أمرت به، وهو ما تضمنه القرآن، واشتملت عليه شريعة الإسلام ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين فيحفظهم من كل مكروه، ويعظم شأنهم، وفي الحديث الشريف: «إن المقسطين - أي العادلين - عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن - وكلتا يديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم - أي فيما تقلدوا من خلافة، وإمارة أو قضاء - وأهلهم وما ولوا»<sup>(٢)</sup> بالتخفيف من الولاية على يتيم، أو صدقة أو وقف، ونحو ذلك.

(١) أخرجه عبد بن حميد، والبيهقي في سننه، وابن المنذر، وأخرج البخاري في كتاب الإجارة في ترجمة باب ٤٥٣/٨ قال ابن سيرين: كان يُقال للسحت: الرشوة في الحكم.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة رقم ١٨٢٧ باب فضيلة الإمام العادل، والنسائي في آداب القضاة ٢٢١/٨ وأحمد في المسند ١٦٠/٢.

﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ  
بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أَوْلِيكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٦﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى  
وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ  
وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا  
تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ  
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ  
بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ  
بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ  
يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٨﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ تعجيب من  
تحكيمهم من لا يؤمنون به، والحال أن الحكم منصوص عليه في الكتاب  
الذي هو عندهم، وتنبه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق، وإنما  
طلبوا به ما يكون أهون عليهم، وإن لم يكن حكم الله تعالى في زعمهم،  
والآية تبرع لليهود، بإظهار جهلهم وذلتهم ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ ﴾ عطف على  
يحكمونك، داخل في حكم التعجيب ﴿ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ من بعدما  
حكموك، أي ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم ﴿ وَمَا أَوْلِيكَ  
بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ بك وبكتابهم.

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان علو شأن التوراة،  
﴿ فِيهَا هُدًى ﴾ يهدي إلى الحق ﴿ وَنُورٌ ﴾ يكشف ما اشتبه من الأحكام  
﴿ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ ﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل، من لدن موسى إلى عيسى  
عليه السلام، ﴿ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ انقادوا لحكم الله تعالى، أجريت على  
النبيين على سبيل المدح، وفيه رفع لشأن المسلمين، وتعريض لليهود،  
وأنهم بمعزل من الانقياد والإسلام والافتداء بدين الأنبياء ﴿ لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾

وهو متعلق بيحكم ويدل على أن النبيين أنبياءهم ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي العُباد والعلماء قاله قتادة، وقال مجاهد: الربانيون العلماء والفقهاء وهم فوق الأحرار أي هم أيضاً يحكمون بها ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي بالذي استحفظوه من جهة النبيين، وهو التوراة حيث سألوهم أن يحفظوها من التغيير والتبديل، وضمير الجمع عائد إلى الربانيين والأحرار أي ويحكم الربانيون والأحرار أيضاً بالتوراة، بسبب ما حفظوه من كتاب الله، حسبما وصَّاهم به أنبياءهم ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ أي رقباء يبينون ما يخفى منه للناس ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ﴾ خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم، وأما حكام المسلمين فيتناولهم النهي بطريق الدلالة كما روي عن ابن عباس، أي إذا كان الشأن كما ذكر يا أيها الأحرار، فلا تخشوا الناس كائناً من كان، واقتدوا في مراعاة أحكام التوراة وحفظها بمن قبلكم من النبيين، والربانيين، ولا تحرّفوا خشيةً من أحد ﴿وَآخِشُونَ﴾ في الإخلال بحقوق مراعاتها ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ أي لا تستبدلوا بآياتي التي فيها بأن تركوا العمل بها، وتأخذوا لأنفسكم ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الرشوة والجاه وسائر الحظوظ الدنيوية ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ كائناً من كان، دون المخاطبين خاصة، فإنهم مندرجون فيه اندراجاً أولياً، ومن لم يحكم بذلك مستهيناً به، منكرأ له، كما يقتضيه ما فعلوه من تحريف آيات الله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ﴾ لاستهانتهم به، وفي الآية أشد تحذير، حيث علّق الحكم بالكفر، بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى، فكيف وقد انضم إليه الحكم بخلافه؟! .

﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ﴾ أي فرضنا على اليهود ﴿فِيهَا﴾ أي في التوراة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ أي تُقَاد بها إذا قتلها بغير حق ﴿وَالْعَيْنَ﴾ تَفْقَأُ ﴿بِالْعَيْنِ﴾ إذا فقئت بغير حق ﴿وَالْأَنْفَ﴾ يُجَدَعُ ﴿بِالْأَنْفِ﴾ المقطوع بغير حق ﴿وَالْأُذُنَ﴾ تُقَطَعُ ﴿بِالْأُذُنِ﴾ المقطوعة ظلماً ﴿وَاللِّسَانَ﴾ تَقْلَعُ ﴿بِاللِّسَانِ﴾ المقلوعة بغير حق ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي ذات قصاص إذا

كانت بحيث تعرف المساواة مثل الشفتين والدكر، والأنثيين، والقدمين، واليدين وغيرها، وما لا يمكن فيه القصاص من كسر في عظم أو جراحة يخاف منه التلف ففيه حكومة عدل ﴿فَمَنْ نَصَّدَقَ﴾ من المستحقين ﴿بِهِ﴾ بالقصاص، أي فمن عفا عنه، والتعبير عنه بالتصدق، للمبالغة في الترغيب فيه ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ يكفر الله به ذنوبه ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ﴾ كائناً من كان ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من شرائع الله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ المتعدون لحدود الله تعالى، قال الضحاك: لم يجعل في التوراة دية في النفس، ولا في الجراح، وإنما كان العفو أو القصاص، وهو الذي يقتضيه ظاهر الآية.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَاتِنَا الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم﴾ شروع في بيان أحكام الإنجيل، أي أتبعناهم على آثارهم ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أرسلنا عيسى عقيهم ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي مصدقاً لما تقدمه من التوراة، فإن ذلك من لازم الرسول ﴿وَآيَاتِنَا الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ كما في التوراة ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي معترفاً بأحكامها وأنها من عند الله، والتكرير لزيادة التقرير ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ تخصيص المتقين بالذكر، لأنهم المنتفعون بهذه الأحكام.

﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ أمر مبتدأ لهم بأن يعملوا بما فيه، من الأمور والأحكام التي لم تنسخ، التي من جملتها دلائل رسالته ﷺ، وأما أحكامه المنسوخة، فليس الحكم بها حكماً بما أنزل الله تعالى، كما يزعم دعاة النصرانية بما يغالطون به عوام المسلمين ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ منكرأ له، ومستهيناً به ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

المتمردون، والخارجون عن الإيمان<sup>(١)</sup>، والآية تدل على أن الإنجيل مشتملٌ على الأحكام، وأن اليهودية منسوخة ببعثة عيسى عليه السلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع.

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِئْتِنَتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ أي الكتاب الكامل، وهو القرآن الكريم ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي ملتبساً بالحق ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أي مصدقاً للكتب السماوية التي سبقتة ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ رقيباً على سائر الكتب، يحفظها عن التغيير ويشهد لها بالصحة ويقرر أصول شرائعها، ومن الغرائب أن البعض من دعاة النصارى، فهم من هيمنة القرآن، الشهادة بحفظ الإنجيل من التحريف، واللفظ لا يدل على هذا، على أن النص شاهد على التحريف ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ ﴾ أي إذا كان شأن القرآن كما ذكر، فاحكم بين أهل الكتابين ﴿ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ إليك فإنه مشتمل على جميع

(١) وصف تعالى من لم يحكم بما أنزل الله بأوصاف ثلاثة: «الكفر، والظلم، والفسق» وهذا غاية في التنبيه على عظم الجريمة، وخطورة الأمر، أن يوصف المعرض عن تحكيم شريعة الله، بأنه كافر، ظالم، فاسق، فيا خيبة حكام العرب والمسلمين! .

الأحكام الشرعية الباقية في الكتب الإلهية ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ﴾ الزائغة كما حَرَفُوا من أمر الرجم ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهون، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ لكن المراد به غيره، لأن الاتباع غير متصور فيه ﷺ ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ كلام مستأنف، لحمل أهل الكتاب على الانقياد لحكم القرآن الكريم، والمعنى: لكل أمة منكم، وضعنا شرعة ومنهاجاً خاصين بتلك الأمة، فالأمة التي من مبعث موسى إلى مبعث عيسى شرعتهم بالتوراة، ومن مبعث عيسى إلى مبعث النبي ﷺ شرعتهم الإنجيل، أما أنتم أيها الموجودون في هذا العصر، فشرعتكم القرآن الكريم، فآمنوا به، والشرعة: الشريعة يعني الطريقة، شبه بها الدين، لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية ﴿ومنهاجاً﴾ أي طريقاً واضحاً في الدين، من نهج الأمر إذا وضح.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جماعة متفقة على دين واحد، في جميع الأعصار، ومفعول المشيئة محذوف أي لو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة لجعلكم، بأن خلقكم على استعداد واحد، وملة واحدة، من غير اختلاف بينكم، في وقت من الأوقات، في شيء من الأحكام الدينية ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي ليعاملكم معاملة من يبتليكم ﴿فِي مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لأعصارها هل تعملون بها أم لا؟ وبهذا اتضح أن مدار عدم المشيئة ليس مجرد الابتلاء بل العمدة في ذلك من انطواء الاختلاف على ما فيه مصلحتهم معاشاً ومعاداً، كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ وَالْخَيْرَاتِ﴾ أي فسارعوا إلى ما هو خير لكم في الدارين، من العقائد الحققة، والأعمال الصالحة المندرجة في القرآن الكريم وابتدروها انتهازاً للفرصة، وحيازة لفضل سبق، فالسابقون السابقون أولئك المقربون ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ فيه وعدٌ ووعدٌ للمبشرين والمقصرين، أي سترجعون إلى الله تعالى وتحشرون إلى دار الجزاء ﴿فِيئْتِيَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بالجزء الفاصل بين المحق والمبطل، بما لا يبقى لكم معه شك فيما كنتم فيه تختلفون في الدنيا.

﴿ وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ عطف على الكتاب كأنه قيل: وأنزلنا إليك الكتاب وقلنا احكم أي الأمر بالحكم لأن المنزل الأمر بالحكم لا الحكم ﴿ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن أحبار يهود، قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد ﷺ لعلنا نفتنه عن دينه فقالوا يا محمد: قد عرفت أننا أحبار يهود، وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فتتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك!! فأبى ذلك رسول الله ﷺ فنزلت، الآية: ﴿ واحذرهم أن يفتنوك ﴾<sup>(١)</sup> ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله تعالى، وأرادوا غيره، ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ أي بذنب إجرامهم، وإعراضهم، وإنما عبر عنه بذلك، إيداناً بأن لهم ذنوباً كثيرة، وهذا من جملتها ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ متمردون في الكفر، معتدون فيه، وفيه تسلية للنبي ﷺ والمراد من الناس العموم، وقيل اليهود خاصة.

﴿ أَفْحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ ﴾ إنكار وتعجيب من حالهم، وتوبيخ لهم أي أيتولون عن حكمك، فيبغون حكم الجاهلية؟ والمراد به متابعة الهوى والمداهنة في الأحكام، وتقديم المفعول للتخصيص، المفيد لتأكيد الإنكار والتعجيب، لأن التولي عن حكمه ﷺ منكر وعجيب، وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا ﴾ إنكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكمه تعالى، أو مساوٍ له ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ عند قوم يتدبرون الأمور، ويتحققون الأشياء بأنظارهم، فيعلمون أنه لا أحسن حكماً من حكم الله سبحانه، ومن الجهالة أن نرى ونسمع من بعض المسلمين في هذا العصر، من يقول لا ننكر الدين، ولكننا لا نريد الشريعة، وهؤلاء هم أشد فساداً في دينهم وأخلاقهم، من أولئك الذين نزلت الآية فيهم، فإنهم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي، وانظر تفسير ابن كثير ٧٠/٢.

يرغبون عن حكم الله إلى حكم غيره، لا يعرفون شرائع الله ومحسناته، فهم ينتقدون كثيراً منها، لعدم موافقتها لأهوائهم، وهم في ضلالٍ مبين!! .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا ﴿٥٧﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلُوا الَّذِينَ آقَسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خطاب يعم كافة المؤمنين، ووصفهم بعنوان الإيمان لحملهم على الانزجار عما نهوا عنه ﴿لَا نَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ أي لا يتخذ أحد منكم أحداً منهم ولياً ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي بعض كل فريق منهم أولياء بعض، متفقون على كلمة واحدة، وهي إجماع الكل على مضارتكم، بحيث يغفونكم الغوائل، فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة<sup>(١)</sup>؟ ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي من جملتهم، والآية محمولة على التشديد، والمبالغة في الزجر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار، أي لا يهديهم إلى الإيمان، بل يخليهم وشأنهم، فيقعون في الكفر والضلالة، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم، تنبيهاً على أن توليهم ظلمٌ، لما أنه تعريضٌ لأنفسهم للعذاب الخالد، والنهي لأفراد

(١) روي عن أبي موسى، الأشعري أنه قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن لي كتاباً نصرانياً، فقال: مالك - قاتلك الله - ألا تتخذُ حنيفياً؟ - أي مسلماً - أما سمعتَ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ . قلتُ: له دينه، ولي كتابته، فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله!! قلت: لا يتمُّ أمر البصرة إلا به، فقال: مات النصراني!! - يعني هبَّ أنه مات - فماذا تصنع بعده؟ .

المسلمين دون جملتهم، لأنه ليس من أصول الدين، أن لا يحالف ويعاهد من يخالفهم فيه، كيف وقد كان ﷺ حالف يهود المدينة عقيب الهجرة؟ وقد قيّد ابن جرير الولاية بكونها لأجل الدين فهذا هو الممنوع والمحزّم.

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ نفاق كابن أبيّ وأضرابه، والخطابُ للرسول ﷺ أو لمن له أهلية للخطاب، وإنما وضع المظهر ليشير إلى أن ما ارتكبه من التولي، بسبب ما في قلوبهم من مرض النفاق، ورخاوة العقل ﴿ يُسْتَرْعُونَ فِيهِمْ ﴾ أي في موالاتهم ومعاونتهم<sup>(١)</sup> والرؤية بصريّة، وإنما قال «فيهم» مبالغة في رغبتهم فيها، وتهالكهم عليها، وللدلالة على أنهم مستقرون في الموالاتة ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي يقول بعضهم لبعض ﴿ نَحْشَى أَنْ نُصِيبَنَّ دَائِرَةً ﴾ الدائرة أصلها ما يحيط بالشيء، والمراد بها هنا مصائب الدهر، ودائرة السوء النوائب تنزل وتهلك جمعها الدوائر، أي يقولون تدور علينا دائرة، بأن ينقلب الأمر، وتكون الدولة للكفار على المسلمين، فنحتاج إليهم، قاله مجاهد وقاتدة، وقد ردّ الله عليهم عللهم الباطلة، وبشر المؤمنين بقوله سبحانه ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ فَإِنَّ «عسى» منه عزّ وجلّ وعدّ محتوم، والمراد بالفتح فتح مكة قاله الكلبي، وقال الضحاك: فتح قرى اليهود، وقال قتادة: هو القضاء بنصره ﷺ على من خالفه، وإعزاز الدين ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ بقطع شأفة اليهود، من القتل والإجلاء، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين ﴿ فَيُصِيبُكُمْ ﴾ أولئك المنافقون المعلنون بما ذكر ﴿ عَلَيْنَا مَا أَسْرَأْنَا فِي أَنْفُسِنَا نَدْمِينَكُمْ ﴾ على ما أبطنوه من الكفر والشك، في أمر الرسول ﷺ وما أظهوره مما أشعر على نفاقهم، وتعليق الندامة بما يكتُمونه من الموالاتة، لما أنه هو الذي كان يحملهم على موالاتة الكفرة.

(١) المراد أن المنافقين من أهل المدينة، يسارعون في مودة اليهود، ونصارى نجران، لأنهم كانوا أهل ثروة وغنى، فكانوا يخالطونهم من أجل منافعهم الخسيسة وهذه من علامات أهل النفاق، لأن حبّهم للعالمية أعظم من حبّهم للدين.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ هذا القول إنما يصدر عن المؤمنين، عند ظهور ندامة المنافقين، والمعنى: ويقول المؤمنون مخاطبين لليهود، مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ﴿ أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَمَعَكُمْ ﴾؟ أي يقول المؤمنون الصادقون بعضهم لبعض: أهؤلاء أقسموا لليهود إنهم لمعكم، فلما حلَّ باليهود ما حلَّ، أظهروا، ما يسرونه من الموالاة، ومعنى جَهْدُ الأيمان: أغلظها ﴿ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ ﴾ هذا من جملة القول، أو من قول الله تعالى، شهادة عليهم بحبوط أعمالهم، وفيه معنى التعجب، كأنه قيل ما أحبط أعمالهم؟ وما أشقاهم في الدنيا والآخرة!.

﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلِعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلِعِبًا ذَلِكَ بَانَهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ .

﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ لما نهى الله تعالى عن موالاة اليهود والنصارى، وفضل مصير المنافقين، شرع في بيان حال المرتدين، والمراد من المرتدين، المرتدون عقيدة وعملاً كما نعي الزكاة، روي أنه ارتد عن الإسلام في عهد رسول الله ﷺ بعض الناس، فنزلت الآية تذكر وتحذر ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ﴾ أي يريد بهم خيري الدنيا والآخرة ﴿ وَيُحِبُّونَهُمْ ﴾ أي يريدون طاعته، ويحترزون عن معاصيه، والمراد بالقوم في

الآية، يعلمُ كلُّ قومٍ يوصفون بأوصاف المسلمين، الذين يحبونه تعالى، وينشرون كلمة الله بين الناس، سواء كانوا من العرب أو العجم، ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ هو كقوله تعالى: ﴿رحماء بينهم﴾ أي متواضعون لهم، والذللُّ بالكسر: اللين، ضد الصعوبة واستعماله بعلی لتضمين معنى العطف والحنو ﴿أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي أشداء متغلبين عليهم كقوله تعالى: ﴿أشداء على الكفار﴾ ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صفة أخرى مبينة للكيفية عزتهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أي أنهم جامعون المجاهدة في سبيل الله، وبين التصلب في الدين، وفيه تعريض بالمنافقين، فإنهم كانوا إذا خرجوا في جيش المسلمين، خافوا لوم أوليائهم من اليهود<sup>(١)</sup> ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما وُصف به القوم ﴿فَضَّلَ اللَّهُ﴾ لطفه وإحسانه إليهم ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كثير الفواضل، والألطف ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالغ العلم بجميع الأشياء، فيعطي الفضل والعزة لمن يشاء!.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لما نهى عن موالات الكفرة، ذكر عقبيه من هو حقيق بها، وإنما قال: ﴿وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ ولم يقل أوليائكم للتنبيه على أن الولاية لله على الأصالة، ولرسوله وللمؤمنين على التبع ﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ صفة للذين آمنوا لجريانه مجرى الاسم، أي الذين يحافظون على الصلاة، ويؤدُّون الزكاة لمستحقيها، فهم يؤدُّون حقَّ الله، وحقَّ عباده ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أي خاشعون ومتواضعون لله تعالى في الصلاة، وإيتاء الزكاة، لا يريدون بذلك إلا وجه الله تعالى<sup>(٢)</sup>.

(١) اللوم: العذلُّ على أمرٍ من الأمور، وإذا كان الفعل مذموماً يقال لفاعله: لم فَعَلْتَ هذا الفعل القبيح، فهذا هو اللوم، وقد يلام الإنسان على فعلٍ حسنٍ محبوب، قال الشاعر:

وإذا الفتى عرف الرشاد لنفسه هانت عليه ملامة العذال  
(٢) ظنَّ بعضهم أن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أنهم يؤدُّون الزكاة في حال ركوعهم، حتى زعم بعضهم أن عليَّ بن أبي طالب تصدَّق وهو راكع، وهذا خطأ =

﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي ومن يتخذهم أولياء ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ الحزب، الطائفة من الناس جعلوا حزب الله تعظيماً لهم، كأنه قيل: ومن يتولهم فإنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآية النهي العام عن موالاته جميع الكفار، وتبته على العلة، بأن من هذا شأنه، جمع بالمعاداة، فكيف بالموالاتة؟ ﴿ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ التعرض لعنوان إيتاء الكتاب، لبيان شناعتهم، لما أن إيتاء الكتاب وازع لهم عن الاستهزاء بالدين، المؤسس على الكتاب المصدق لكتابهم ﴿ وَالْكَفَّارَ ﴾ أي المشركين لتضاعف كفرهم ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ في العون والنصرة ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ ﴾ في ذلك بترك موالاتهم، أو بترك المناهي على الإطلاق، فيدخل فيه ترك الموالاتة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ حقاً فإن قضية الإيمان توجب الاتقاء لا محالة.

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا ﴾ أي الصلاة، أو المناداة، وفيه دليل على أن الأذان مشروع للصلاة بالنص، لا بالمنام وحده، ومنام «عبد الله بن زيد» كان أول ما قدم ﷺ المدينة، وسورة المائدة من آخر القرآن نزولاً، حيث ورد بعد ثبوته، فيكون النص تقريراً له ﴿ هُزُؤًا وَلَعِبًا ﴾ روى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس، أنه قال: كان منادي رسول الله ﷺ إذا نادى بالصلاة، فقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا، لا قاموا، فإذا رأوهم ركعاً وسُجداً، استهزؤوا بهم، وضحكوا منهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لَا يَمْلِكُونَ ﴾ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق، والهزؤ به، والعقل يمنع منه، ولو كان لهم عقلٌ لما اجترؤوا على تلك العظيمة، وسمى تعالى الأذان مناداةً، لقول المؤذن فيه: حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح.

= وفهم غريب لمعنى الآية، وإنما المراد أنهم خاشعون متواضعون لعظمة الله جلَّ وعلا، وانظر ما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧٤/٢ في الرد على من زعم ذلك.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَإِنْ أَكْثَرْتُمْ فَنَسِفُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَتِهِ اللَّهُ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ أمرٌ لرسول الله ﷺ بأن يخاطبهم، ويبين أنَّ الدين منزهُ عما صدر عنهم من الاستهزاء، أي قل لأولئك الفجرة ﴿ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا ﴾ نقم الأمر كرهه، أي هل تنكرون وتعيبون منا ﴿ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ من القرآن المجيد ﴿ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ من التوراة والإنجيل المنزليين عليكم، وسائر الكتب الإلهية ﴿ وَإِنْ أَكْثَرْتُمْ فَنَسِفُونَ ﴾ أي متمردون خارجون عن دائرة الإيمان، فإن الكفر بالقرآن العظيم، مستلزمٌ للكفر بسائر الكتب الإلهية، ومعنى الآية: ما تنقمون منا ديننا لعلِّه من العلل، إلاً لإيماننا بالله تعالى، وما أنزل إلينا وما أنزل من قبلنا، ولأن أكثركم متمردون غير مؤمنين بشيء مما ذكر، وقيل: ﴿ أكثركم ﴾ لإخراج المؤمنين منهم، فإن منهم من قد آمن، وحسن إيمانه.

﴿ قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ ﴾ لما أمر ﷺ بإلزامهم، بيان أن مدار نقمتهم على الدين أولاً، هو اشتماله على كفرهم، أمر عقبيه بأن يوبخهم بيان أن الحقيق بالنقم والعيب، ما هم عليه من الدين المحرّف، أي هل أخبركم بما هو شرٌّ في الحقيقة مما تعتقدونه شرّاً؟ هو أنتم المفسدون المكذبون لرسول الله، عن ابن عباس قال: أتى النبي ﷺ نفرٌ من اليهود، فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، قال: أومِنُ بالله ﴿ وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى... إلى قوله تعالى - ونحن له مسلمون ﴾ فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا لا نؤمن بعيسى، ولا بمن آمن به، ثم قالوا: لا نعلم ديناً شرّاً من

دينكم، فأنزل الله الآية<sup>(١)</sup> ﴿مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي جزاء ثابتاً في حكمه تعالى، والمثوبة مختصة بالخير، كالعقوبة مختصة بالشر، فوُضعت ههنا موضعها على طريقة التهكم، كقول الشاعر: «تحيُّهُ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيحٌ» ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، بتقدير مضاف، أي هو دين من لعنه الله ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي مسخ بعضهم قرده، وبعضهم خنازير، وهم اليهود أبعدهم الله من رحمته بكفرهم، وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، قال ابن عباس: إن المسخين بالقردة والخنازير، كانا في أصحاب السبت، مُسخت شبانهم قرده، وشيوخهم خنازير ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ عطف على صلة «مَنْ» كأنه قيل: ومن عبد الطاغوت ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الموصوفون بتلك الفضائح ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ أي شرٌّ مصيراً ومآلاً في الآخرة، لأن مكانهم الجحيم، ولا مكان أشر منه ﴿وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي وأكثر ضلالاً وبعداً عن الطريق المستقيم، وفيه دلالة على أنَّ دينهم شرٌّ محض، بعيد عن الحق، فمن هذا حاله، كيف يتجاسر على الاستهزاء بدين الإسلام ولكنهم اليهود اللعناء، لا يتورعون عن كل جريمة؟

﴿وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ قَالُوا آمَنَّا﴾ قال قتادة: نزلت في ناس من اليهود، كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ ويظهرون له الإيمان نفاقاً، وقيل: هم عامة المنافقين ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ أي يخرجون من عندك كما دخلوا، لا يؤثر فيهم ما سمعوا منك وكلمة «هم» للتأكيد في إضافة الكفر إليهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي من الكفر، وفيه وعيد لهم، وإنما لم يقل سبحانه «وقد خرجوا» إفادة لتأكيد الكفر، دون لفظ الخروج، لأنه خلاف الظاهر، إذ كان الظاهر بعد تنور أبصارهم، برؤية مطلع شمس الرسالة، وتشنف أسماعهم بلآلئ درر النبوة، أن يرجعوا عما هم عليه من الغواية، فلما سمعوا قول النبي ﷺ وأنكروه، ازداد كفرهم وضلالهم.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ٤٥٢/١٠.

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَاةَ وَالْبَغِضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسِعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ ﴾ أي من أولئك اليهود، والخطاب لسيد الرسل ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب ﴿ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ ﴾ المراد بالإثم الكذب ﴿ وَالْعُدْوَانِ ﴾ الظلم ومجاوزة الحد في الطغيان، والكلام مسوق لوصفهم بسوء الأعمال، بعد وصفهم بسوء الاعتقاد ﴿ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ أي الحرام مطلقاً، وقال الحسن: الرشوة في الحكم، خصه بالذكر مع اندراجه في الإثم، للمبالغة في التفتيح ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي لبئس شيئاً يعملونه من تلك الأفعال الشنيعة.

﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ «لولا» هنا للتحضيض أي الحث على فعل الشيء المحبوب فهي بمعنى «هلاً» أي هلاً يزرهم علماءهم وأحبارهم ﴿ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ أي عن فعل المعاصي والآثام، وأكلهم المال الحرام!؟ قال أبو حيان في تفسيره البحر المحيط: هذا التحضيض يتضمن توبيخهم على السكوت وترك النهي ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ وهذا أبلغ مما تقدم من الفعل والعمل، لما تقرّر في اللغة، أن الفعل ما صدر عن الإنسان مطلقاً، فإن كان عن قصدٍ سُمي عملاً، ثم إن حصل بمزاولة وتكرّر، حتى رسخ وصار ملكة له، سُمي صنعة وصنعة، فلذا كان الصنع أبلغ، لاقتضائه الرسوخ، ففي الآية إشارة إلى أن ترك النهي أقبح من الارتكاب.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ قال ابن عباس: إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود، حتى كانوا من أكثر الناس مالا، فلما عصوا الله سبحانه، وكفروا برسول الله ﷺ، كف عنهم ما بسط عليهم، فعند ذلك قال: «فنحاص بن عازواء» يد الله مغلولة، وحيث لم ينكر الآخرون نسبت إلى الكل، وأرادوا بذلك لعنهم الله تعالى، أنه ممسكٌ فإن كلاً من غلَّ اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود<sup>(١)</sup>، ومنه قوله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾<sup>(٢)</sup> وهذا من أشنع جرائم اليهود، حيث اتهموا الله بالبخل لعنهم الله ﴿غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل المذموم، والفقر والنكد، وما زالوا أبخل الأمم، فلا يكاد أحد منهم يبذل شيئاً يسيراً، إلا إذا كان يرى أن له من ورائه ربحاً كثيراً، أو يُراد بغل الأيدي حقيقة، يُغلون أسارى في الدنيا، ويقيدون بالسلاسل إلى النار في الآخرة ﴿وَلِعْنُوا﴾ أي أبعدوا عن رحمة الله تعالى ﴿بِمَا قَالُوا﴾ أي بسبب ما قالوا ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ عطف على مقدر، أي كلا ليس كذلك، بل هو في غاية ما يكون من الجود والسخاء ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي هو مختار في إنفاقه، يوسع تارة، ويضيق أخرى، على حسب مشيئته، ومقتضى حكمته، وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي، أن يضيق عليهم، كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ الآية ﴿وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من اليهود، وهم علماءهم ورؤسائهم، أو المقيمون على الكفر منهم مطلقاً ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿مِن رَّبِّكَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي يزدادون طغياناً وكفراً مما يسمعون من القرآن، كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح، والزيادة من حيث الكم والكثرة،

(١) العرب تقول: فلان مغلول اليد إذا كان بخيلاً لا ينفق، وفلان يده مبسوطة إذا كان سخياً كريماً، فالآية كناية عن البخل والجود، والقرآن نزل بأساليب العرب المعروفة عندهم التي يتخاطبون بها.  
(٢) سورة الإسراء، آية: ٢٩.

إذ كلما نزلت آية كفروا بها، فيزداد طغيانهم وكفرهم ﴿وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾ أي بين اليهود، وقيل: بين اليهود والنصارى، لأنه قد جرى ذكرهم في قوله سبحانه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى﴾ ولشمول قوله عز وجل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ للفريقين ﴿وَالْبَعْضَاءُ﴾ فلا تتوافق قلوبهم، ولا تتطابق آراؤهم، قال أبو حيان: لا يزال اليهود والنصارى متعادين، وفي ذلك إخبار بالغيب، فإنه لم يجتمع لحرب المسلمين جيش يهود ونصارى، منذ سلَّ الإسلامُ السيفُ ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فلا تتوافق قلوبهم ﴿كَلِمًا أَوْ قُدُورًا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَالًا لِلَّهِ﴾ أي كلما أرادوا محاربة الرسول ﷺ، ورتبوا مباديها، ردَّهم الله تعالى بتفرق آرائهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، فيإقاد النار كناية عن إرادة الحرب، وقد كانت العرب إذا تواعدت للقتال جعلوا علامتهم إيقاد نار على جبل أو ربوة، ويسمونها نار الحرب، والمراد من إيقاد النار، إظهار الكيد بالمؤمنين، وإطفائها صرف ذلك عن المؤمنين، وقيل هو أعم من ذلك، أي كلما أرادوا حرب أحد غلبوا، فإنهم لما خالفوا حكم التوراة، سلط الله عليهم بختنصر المجوسي، ثم أفسدوا فسلط عليهم قطرس الرومي، ثم أفسدوا فسلط عليهم الفرس، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المسلمين ﴿وَسَعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي يسعون سعي فساد، فيما يأتونه من إيقاد الحرب، وتهيج الفتن، ولم يكن سعيهم للإصلاح والشؤون الاجتماعية، بل كانوا يسعون للفساد بين الناس، كانوا يحرضون المشركين على الرسول ﷺ، فكانوا سبباً للغزوات الكثيرة، كما أنهم يغرون الدول بعضهم على بعض في هذا الزمان، نعوذ بالله من شرورهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون!! ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يبغضهم، ولذلك أطفأ الله نائرة فسادهم.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ  
وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ  
إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ  
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا﴾ أي اليهود والنصارى والمراد بهم معاصرو رسول الله ﷺ أي لو أنهم - مع ما صدر عنهم من فنون الجنيات - آمنوا برسول الله ﷺ وبما جاء به ﴿وَاتَّقُوا﴾ أي ما حرّم الله تعالى ﴿لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي اقترفوها وإن كانت في غاية العظم ﴿وَلَا دَخَلْنَا لَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿جَنَّةَ النَّعِيمِ﴾ تكفير السيئات في مقابلة الإيمان، وإدخال الجنة في مقابلة التقوى، وتكرير اللام لتأكيد الوعد، وفيه تنبيه على عظم معاصيهم، وكثرة ذنوبهم، وأن الإسلام يَجِبُ<sup>(١)</sup> ما قبله.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ بمراعاة ما فيها من الأحكام، التي من جملتها شواهد النبوة ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ﴾ من القرآن الكريم، وإيراده بهذا العنوان، للإيذان بوجوب إيمانهم به لنزوله عليهم أيضاً، لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب، وفي إضافة الرب إلى ضميرهم، مزيد لطفٍ بهم في الدعوة إلى الإقامة ﴿لَا تَكُونُوا مِنْ قَوْمِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي لأوسع الله عليهم أرزاقهم، بأن يفيض عليهم بركات السماء والأرض، وفي هاتين الشرطيتين من حثهم على الإيمان والتقوى، لنيل سعادة الدارين، وتنبيههم على أن ما أصابهم من الضنك والضييق، إنما هو من جنایاتهم، لا لقصورٍ في فيض الفيّاض جل وعلا، ودلت الآية على أن الإيمان والتقوى، سببٌ لسعة الرزق، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ أي عادلة، غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْمِلُونَ﴾ أي وكثير منهم أشرار فجار لتحريفهم الحق، والإعراض عنه، وهم الأجلاف المتعصبون.

(١) في اللغة جبٌّ يَجِبُ جَبًّا وَجِبَابًا أي يقطع، فالإسلام يقطع ويهدم ما قبله من الكفر والذنوب، وانظر المعجم الوسيط مادة جبب.  
(٢) سورة الأعراف، آية: ٩٦.

﴿ يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصْرَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الرَّسُولُ ﴾ نداء تشریف ﴿ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ إلى الثقلين كافة، بلَّغهم جميع ما أنزل إليك من الأحكام، وما يتعلق بها كائناً ما كان ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي مالك أمورك ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ﴾ ما أمرت به من التبليغ كافة ﴿ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ أي فما بلغت شيئاً من رسالته، لأن كتمان بعضها يضيع ما أدبى منها، كترك بعض أركان الصلاة، واستدل بالآية على أنه ﷺ لم يكتم شيئاً من الوحي، وأما ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: «حفظتُ من رسول الله ﷺ وعائين: فأما أحدهما فبشئته، وأما الآخر فلو بشئته فُطِعَ مني هذا البلعوم»<sup>(١)</sup> أي مجرى الطعام، فإنما هو في غير الأحكام الشرعية، كأموال المنافقين وأسمائهم، وبعض الأمور الغيبية التي لو كشفها لجرّت إلى فتنة، وجميع ما عند النبي ﷺ من الأسرار الإلهية، والأحكام الشرعية، قد اشتمل عليه القرآن الكريم، قال الله سبحانه: ﴿ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وقال: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وفي الحديث الشريف: «أما إنها ستكون فتنة، قيل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم ٢١٦/١ قال البخاري: البلعوم مجرى الطعام.

بينكم...»<sup>(١)</sup> الحديث. ومن زعم أن هناك أسراراً خارجة عن كتاب الله تعالى فقد أعظم الفرية، وجاء بالضلال بلا مرية، وزعمت الشيعة أن في الآية: ﴿مِمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ خلافة علي فقد رَوَوْا بأسانيدهم عن أبي جعفر أن الله تعالى أوحى إلى نبيه ﷺ أن يستخلف علياً، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه، فأنزل الله هذه الآية، ومن وقف على ما يرويه الشيعة فيها، وكان له أدنى خبرة، رأى العَجَب العُجَاب، وتحقق أن أقوال القوم كصيرير باب، أو كظنين ذباب، ومما يبعد دعوى الشيعة قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فإن الناس فيه يراد بهم الكفار، بدليل ختم الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فإنه في موضع التعليل لعصمته ﷺ روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يحرس ليلاً، حتى نزلت هذه الآية، فأخرج رأسه من القَبَّة فقال: يا أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني الله تعالى»<sup>(٢)</sup>.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ مخاطباً للفريقين: اليهود، والنصارى ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي دين يُعتدُّ به، ويليق بأن يُسمَى شيئاً، وفي هذا التعبير من التحقير ما لا غاية وراءه ﴿حَتَّى تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي تراعهما وتحافظوا على ما فيهما من الأمور، التي من جملتها دلائل رسول الله ﷺ وأما مراعاة أحكامهما المنسوخة، فليست مرادة، لانتهاء وقت العمل بهما بنسخهما ﴿وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي القرآن المجيد، بالإيمان به، فإن إقامة الجميع لا تتأتى بغير ذلك، وفي هذا بيان بأن أهل الكتاب لم يقيموا دين الله تعالى، لا وسائله، ولا مقاصده على الوجه الذي كان عليه سلفهم قبل مجيء خاتم الأنبياء ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي وليزيدن هذا القرآن المنزل عليك يا محمد الكثير منهم الغلو

(١) أخرجه الترمذي في فضل القرآن رقم ٢٩٠٨ وانظر تمام الحديث في جامع الأصول ٤٦٢/٨.

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٠٤٦.

في التكذيب، والإصرار على جحود نبوتك ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي فلا تحزن لطغيانهم، فإن غائلته عائدة عليهم، ووضع المظهر موضع المضمرة، لتسجيل الكفر عليهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَى مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي من آمن من هؤلاء  
المذكورين، إيماناً صادقاً خالصاً، لا يشوبه شك ولا ارتياب بالله واليوم  
الآخر، وعمل لآخرته، فإنه ينال جزاءه بدخول الجنة، من غير أن يصيبه  
خوف ولا فزع.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا  
جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٦﴾  
وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا  
وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ  
قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي  
وَرَبَّكُمْ إِنَّهُمْ لَشَرِكٌ بِاللَّهِ فَكَدَّ حِرْمًا اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ وَمَأْوَنَةُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ  
أَنْصَارٍ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بيان لبعض آخر من  
جناياتهم ﴿وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا﴾ ذوي عدد كثير، ليبينوا لهم أمر دينهم  
ويتعهدوهم بالعظة والتذكير ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ أي  
بما لا تحبه أنفسهم، ولا تميل إليه من الشرائع، ومشاق التكاليف، عصوه  
﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لأنهم كانوا يعتقدون أن النَّسَخَ ممتنع على  
شرع موسى، والواجب عليهم في كل رسول جاء بشرع آخر تكذيبه وقتله،  
فلذلك كذبوا بعضهم، وقتلوا بعضهم، وإنما أوتر صيغة المضارع،  
لاستحضار صورتها الهائلة للتعجيب، وللتنبية على أن ذلك ديدنهم المستمر.

﴿ وَحَسِبُوا أَن لَّتَكُونَ فَتْنَةً ﴾ أي حسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاء وعذاب، بقتل الأنبياء عليهم السلام وتكذيبهم ﴿ فَعَمُوا ﴾ أي تبادوا في فنون الغي والفساد، وعموا عن الدين، بعدما هدامهم الرسل، وبيتوا لهم مناهجه ﴿ وَصَمُّوا ﴾ عن استماع الحق الذي ألقوه إليهم ﴿ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد، بعدما كانوا ببابل دهرأً طويلاً، تحت قهر بختنصر، أسارى في غاية الذل والمهانة، فوجه الله ملكاً من ملوك فارس إلى بيت المقدس فعمره، وردّ من بقي من بني إسرائيل إلى وطنهم، فاستقروا وكثروا، وكانوا كأحسن ما كانوا عليه من الحال، وذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا ﴾ وهو إشارة إلى المرة الآخرة، من مرّتي إفسادهم، وذلك في سلسلة جرائمهم الشنيعة المتلاحقة، فقد أوغلوا في الضلال، واجترؤوا على قتل زكريا، ويحيى، ثم قصدوا قتل عيسى ﴿ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي كثيرون منهم ضالون، وإنما قال سبحانه: ﴿ كثير منهم ﴾ لأن بعضاً منهم لم يكونوا كذلك ﴿ وَاللَّهُ بِصَيْرُكُمْ عَلِيمٌ ﴾ بما عملوا، وهذا وعيد لهم وتهديد.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ شروع في تفصيل قبائح النصارى، وهم فرقة تسمى الملكانية يقولون: إن الله اسمٌ يجمع أمأ، وابناً، وروح القدس، فصار كلهم إلهاً واحداً، فعيسى هو الله، واليعقوبية منهم يقولون: إن الله سبحانه حلّ في ذات عيسى، واتحد بذاته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ ﴾ أي وقد قال المسيح مخاطباً لهم ﴿ يَبْنَئِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أي إني عبدٌ مربوب مثلكم، فاعبدوا خالقي وخالقكم، ولا يزال أمره هذا محفوظاً عندهم ﴿ إِنَّهُم مِّنْ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ ﴾ أي شيئاً من عبادته سبحانه كنسبة علم الغيب وإحياء الموتى بالذات إلى عيسى ﴿ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ لأنها دار الموحدين ﴿ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾

(١) سورة الإسراء، آية: ٧.

فإنها معدة للمشركين ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي ما لهم من أحد ينصرهم، بإنقاذهم من النار.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٦) ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٤) ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥) ﴿قُلْ أَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧٦) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٧).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ معنى قولهم: ﴿ثالث ثلاثة﴾ أي أحد هذه الأعداد، لا الثالث خاصة، فإنهم يقولون: إن الإلهية مشتركة بين الله سبحانه، وعيسى، ومريم، ويؤكدده قوله تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟﴾ (١) وهو المتبادر من قوله تعالى ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي وما في الوجود ذاتٌ واجب مستحق للعبادة إلا إله موصوف بالوحدانية، مستحق للعبادة، متعال عن قبول الشركة، ولا ترى أظهر بطلاناً من مقالة النصارى، فإن الثلاثة لا تكون واحداً، والواحد لا يكون ثلاثة آلهة، بوجه من الوجوه، وهل يجوز أن يتحد موجودان، بحيث لا يبقى بينهما الإثنية؟ هذا شيء

(١) سورة المائدة، آية: ١١٦.

مستحيل، ممتنع بالشرع والعقل<sup>(١)</sup> ﴿وَأَن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي إن لم يرجعوا عمّا هم عليه إلى التوحيد والإيمان ﴿لَيَمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي بالله ليمس الذين بقوا منهم على الكفر ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي نوع شديد الألم من العذاب.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ؟﴾ الاستفهام لإنكار الواقع واستبعاده، وتعجيبٌ من إصرارهم على الكفر، أي ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائفة، فلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه عما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول؟ ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا، وهي مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ استئناف مسوقٌ لتحقيق الحق، وبيان حقيقة حاله، وحال أمه عليه السلام، أي ليس المسيح ابن مريم إلا رسول كسائر الرسل قبله، وليس فيه من صفات الألوهية شيء ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي ما هو إلا رسول كالرسل قبله، خصه الله بآيات، كما خصهم بها، فإن أحياء الموتى على يده فقد أحيى العصا في يد موسى، وإن خلقه من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب وأم، وكل ذلك من جنابه عز وجل، وإنما موسى وعيسى مظاهر لشؤونه وأفعاله تعالى، فأين لكم وصفه بالألوهية؟ ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي وما أمه أيضاً، إلا كسائر النساء، اللواتي لازمن الصّديق، فكانت عفيفةً أمينةً شريفةً، وليست زوجة لله كما يزعم النصارى، واستدل بالآية من ذهب إلى عدم نبوة مريم، لأنه تعالى أشار

---

(١) الأقانيم الثلاثة «الآب، الابن، روح القدس» على زعم النصارى وهي مختلفة كل الاختلاف، فالآب غير الابن، والابن غير روح القدس، فكيف تكون الثلاثة واحداً؟ وإذا قلنا: هذه طاولة، وهذا كرسي، وهذا سرير، فهل يقبل عاقل أن تقول له: إن هذه الثلاثة واحداً؟ هل هي ثلاث كراسي؟ هل هي ثلاث طاولات؟ لا، هل هي ثلاثة أسرة؟ لا، كيف تكون إذاً الثلاثة واحداً؟ ولذلك يقولون: لا يجتمع عقلٌ ونصرانية، إذ كيف يكون الآب والابن وروح القدس ثلاثتها واحداً؟.

في معرض بيان أشرف خصائصها «الصديقية» ولو كان لها مرتبة «النبوة» لذكرها ﴿كَأَنَّا يَاكُلَانِ اللَّعْمَامُ﴾ أي كان عيسى وأمه كسائر البشر، يأكلان الطعام، ويحدثان الحدث، فكيف يكونان إلهين؟<sup>(١)</sup> ثم عَجَّبَ تعالى ممن يدعي الربوبية لهما، مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة فقال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي انظر كيف نبين لهم الآيات الباهرة ببطلان ما يقولون عليهما ﴿ثُمَّ أَنْظُرْ أَفَّ يُؤْفِكُونَ﴾ أي كيف يُصرفون عن الحق، وثم لتفاوت ما بين العَجَبَيْنِ، أي أن بياننا عَجَبٌ، وإعراضهم عنها أعجبٌ، والإفك: الكذب، وأصله الصرف والقلب، ويقال للكذب إفك، لأنه صرفٌ عن الحق، قيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك.

﴿قُلْ أَنْعَبُدُوكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؟ أي أتعبدون من دون الله من لا يقدر لكم على النفع والضرر؟ يعني عيسى عليه السلام، فإنه عاجز عن دفع الضر عن نفسه فضلاً عن غيره؟ فلا يملك مثل ما يفعل الله تعالى بالخلق، من البلايا والمصائب، وما ينفع به من الصحة والسعة، وقيل: المراد بـ«ما» كل ما يعبد من دون الله، كالأصنام وغيرها، غلب ما لا يعقل على ما يعقل ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي سميع لأقوالكم، عليم بضمائرکم، وهو متضمن للوعيد لمن عبد غير الله تعالى.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى فريق أهل الكتاب، بعد إبطال مسلك كل منهما، للمبالغة في زجرهم عما سلكوه واختار الطبري كونه خطاباً للنصارى خاصة، لأن الكلام معهم ﴿لَا تَقْلُوبُوا فِي دِينِكُمْ﴾ غلا في الدين غلواً تصلباً وشدداً حتى جاوز الحد، أي لا تجاوزوا الحد وهو نهي للنصارى عن رفع عيسى عليه السلام عن رتبة

(١) في الآية الكريمة إشارة بارعة رائعة إلى بطلان ألوهية عيسى، فإن من يأكل الطعام، ويشرب الشراب، يحتاج إلى التغوط والتبول، وإخراج الفضلات من بطنه، فكيف يكون عيسى إلهاً، وهو يأكل ويشرب، ويحدث الحدث، ثم هو قد خرج من فرج امرأة؟ أليس هذا كافياً على بطلان دعوى الألوهية؟

الرسالة إلى ما يقولون، إنه إله، ولليهود عن وضعهم له عن الرتبة العلية، إلى ما يقولون إنه ابن زنى ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي لا تغلوا غلواً باطلاً، وذكرهم بعنوان: «أهل الكتاب» للإيماء إلى أن كتابهم ينهاهم عن الغلو في دينهم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ يعني أسلافهم وأئمتهم، الذين ضلوا قبل مبعث الرسول ﷺ ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أي أناساً كثيرين ممن شايعهم على بدعهم وضلالهم، أو إضلالاً كثيراً ﴿وَضَلُّوا﴾ عند بعثة النبي ﷺ ووضوح محجة الحق ﴿عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ عن قصد السبيل الذي هو الإسلام، بعد مبعثه ﷺ كذبوه وبغوا عليه.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسَهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي لعن الله عز وجل، وبناء الفعل للمفعول، للجرى على سنن الكبرياء ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله في الزبور، والإنجيل على لسانهما ﴿ذَلِكَ﴾ أي اللعن المذكور، والطرده من رحمة الله ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ بسبب عصيانهم ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وبسبب اعتدائهم المستمر.

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ مؤذن باستمرار الاعتداء منهم، وعدم التناهي عن تعاطي المنكرات، أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر والمراد بالمنكر، قيل صيد السمك يوم السبت، وقيل أخذ الرشوة،

وقيل: أكل الربا، والأولى العموم، وهو أن يراد به نوع المنكر ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تقبيح لسوء أعمالهم، وتعجيبٌ منه بالتأكيد القسَمي، أي لبس شيئاً فعلوه في الدنيا، وفي هذه الآية زجر شديد، لمن يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فقد روى حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله تعالى أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم تدعونه فلا يستجيب لكم»<sup>(١)</sup>. والأحاديث في هذا الباب كثيرة، فيا حسرة على المسلمين، في إعراضهم عن هذا الواجب الكبير.

﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب ككعب بن أشرف وأضرابه ﴿يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المراد من ﴿الذين كفروا﴾ مشركو مكة، روي أن جماعة من اليهود، خرجوا إلى مكة، ليتفقوا مع مشركيها على محاربة النبي ﷺ والمؤمنين، فلم يتم لهم ذلك ﴿لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ هُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي لبس شيئاً قدّموه ليردوا عليه يوم القيامة ﴿أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هو المخصوص بالذم، أي موجب سخط الله وغضبه عليهم ﴿وَفِي الْعَذَابِ﴾ عذاب جهنم ﴿هُمْ خَالِدُونَ﴾ أبد الأبدين أي لبس ذلك لأنه أكسبهم السخط والخلود.

﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ أي الذين يتولون المشركين من أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ أي لو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله تعالى إيماناً صحيحاً وبنبينا ﷺ وبالقرآن الكريم ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ أي ما اتخذوا المشركين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ فإن الإيمان الصادق وازعج عن توليهم قطعاً ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسَقُونَ﴾ أي خارجون من دينهم، متمردون في نفاقهم.

(١) أخرجه الترمذي في الفتن رقم ٢١٧٠ ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ «لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو لیسطنَّ الله عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يُستجاب لهم» وانظر مجمع الزوائد ٢٦٦/٧.

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾  
 وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ  
 ذَلِكَ يَأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٧﴾  
 ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ  
 الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٨﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا  
 جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٩﴾ فَأَثْبَهُمُ اللَّهُ  
 بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ  
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ  
 الْجَحِيمِ ﴿٩١﴾ .

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ الخطاب  
 للرسول ﷺ أو لكل أحد، يخبر أن اليهود أشد الناس عداوةً للمسلمين،  
 لتضاعف كفرهم، وانهماكهم في اتباع الهوى وركونهم إلى التقليد،  
 وتكذيبهم لأنبياء الله ومعاداتهم، وقد قيل: إن من مذهب اليهود، أنه  
 يجب عليهم إيصال الشر، إلى من يخالفهم في الدين، بأي طريق كان،  
 وفي تقديم اليهود على المشركين، إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة،  
 فالوثنيون واليهود أشد الطوائف عداوةً للمؤمنين ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم  
 مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ ﴾ المراد منهم - ما روي عن ابن  
 عباس -: النجاشي وأصحابه ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي كونهم أقرب مودة للذين  
 آمنوا، للين جانبهم، ورقة قلوبهم ﴿ يَأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا  
 يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، ولا يتكبرون كاليهود، والقسيس  
 صيغة مبالغة من تقسس الشيء إذا تبعه، سموا بذلك لمبالغتهم في تتبع  
 العلم، والرهبان جمع راهب وهو العابد، وأصله من الرهبة أي الخوف،  
 والتنكير في «رهباناً» لإفادة الكثرة، وفي الآية دليل على أن التواضع،

والإقبال على العلم، والإعراض عن الشهوات، محمودة أينما كانت، لا سيّما ممن ينتسب إلى العلم والدين!.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وهذا بيان لرقة قلوبهم، وشدة خشيتهم، والفيض: أن يمتلىء الإِناء ويسيل من شدة الامتلاء، جُعِلَتْ أَعْيُنُهُمْ مِنْ فَرَطِ الْبُكَاءِ، كأنها تفيض أنفسها، قال ابن عباس يريد النجاشي وأصحابه، قال لجعفر بن أبي طالب: هل في كتابكم ذكر لمريم؟ قال: فيه سورة مريم، فقرأها، فبكى النجاشي وأصحابه، والمراد بالنصارى «نصارى الحبشة» الذين سمعوا القرآن فبكوا وآمنوا، لا النصارى عامة، بدليل قوله بعده ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وليس كل النصارى كذلك<sup>(١)</sup> ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي وذلك من أجل ما عرفوه من الحق، الذي بيّنه لهم القرآن الكريم ﴿يَقُولُونَ﴾ كأنه قيل ماذا يقولون؟ فأجيب بقوله ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ أي صدّقنا بنبيك وبكتابك ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي من الذين شهدوا بأن الإسلام حقٌّ، أو من الشاهدين من أمته، الذين هم شهداء الله على الأمم يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ هذا من تنمة قولهم، قالوه تحقيقاً لإيمانهم، ومعنى الإيمان بالله: الإيمان بوحْدانيته سبحانه، على الوجه الذي جاءت به الشريعة المحمدية ﴿وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ يعني القرآن الكريم ﴿وَنَطْمَعُ﴾

(١) هذا هو الحقُّ وهو الصحيح، أن الآية نزلت في نصارى الحبشة - زمن النجاشي - فإنهم لمَّا سمعوا القرآن، بكوا حتى اخضلت لحاهم بالدموع، وأعلنوا إيمانهم هم والنجاشي، بالقرآن والرسول، بدليل قوله تعالى بعده ﴿تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ يقولون ربنا آمنا فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، وليست في النصارى عامة كما نرى من حال الصرب المجرمين، فالنصارى إخوة اليهود في المكر والخبث والعداء، ففتنّه رعاك الله.

ونحن نطمع ﴿ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا ﴾ الجنة ﴿ مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ أي ونحن نطمع في صحبة الصالحين في الجنة .

﴿ فَأَتْبَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي فجزاهم الله تعالى ﴿ يَمَا قَالُوا ﴾ أي بقولهم الذي عبّروا عنه عن الإيمان وإخلاصهم ﴿ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿ الذين أحسنوا النظر والعمل، واعتادوا الإحسان في الأمور كلها من أهل الإيمان، أقيم الظاهر مقام ضميرهم مدحاً لهم .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ بيان لحال المكذبين، وذكرهم في معرض المصدقين بها جمعاً بين الترغيب والترهيب، وبغيرها تبيين الأشياء .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا نَطَعُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي ما طاب ولذّ منه، أي لا تمنعوا أنفسكم وتحرموا الطيبات بنحو يمين، روي أن رسول الله ﷺ جلس يوماً، فذكر الناس، ووصف القيامة، واجتمع عشرة من الصحابة في بيت «عثمان بن مظعون» واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقرّبوا النساء، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآية، فقال لهم الرسول ﷺ: «أنتم الذين قلمت كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي

وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(١)</sup> أي ليس من المتقين، فلا ينافي هذا النهي أن الله تعالى مدح النصارى بالرهابية، فربّ ممدوح بالنسبة إلى قوم، مذموم بالنسبة إلى آخرين، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ تأكيد للنهي السابق، والاعتداء يكون كذلك، بتجاوز الحلال إلى الحرام، أو بالإسراف في تناول الطيبات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في موضع التعليل لما قبله، أي يبغضهم ويمقتهم لتجاوزهم حدود الله.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي وكلوا مما أحلّ الله لكم وطاب مما رزقكم الله، والآية دليل على شمول الرزق للحلال والحرام، إذ لو لم يقع الرزق على الحرام، لم يكن لذكر الحلال فائدة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَرَكُمْ مِنْ مَوْتِكُمْ﴾ فإن الإيمان به تعالى، يوجب المبالغة في التقوى، والانتهاز عما نهى عنه، وأكل اللذائذ لا ينافي التقوى، فقد أكل النبي ﷺ ثريد اللحم، ومدّحه، وكان يحبّ الحلوى.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ عن ابن عباس أنه قال لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ...﴾ الآية في القوم الذين حرّموا على أنفسهم اللحم، والنساء، قالوا يا رسول الله: كيف نصنع بأيماننا؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية<sup>(٢)</sup> ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي بما عقدتموه ووثقتموه بالقصد والنية، إذا حنثتم فيه، وحذف للعلم به ﴿فَكَفَّرْتُمُوهُ﴾ فكفارة نكته، التي من شأنها أن تكفر الخطيئة، واستدل بظاهره على جواز التكفير قبل الحنث، وعندنا لا يجوز لقوله ﷺ: «إذا حلفت على يمين،

(١) أصل الحديث في الصحيحين من رواية أنس بن مالك. ولفظ الحديث كما في رواية البخاري «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، قالوا: فأين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه!!» الحديث.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان ١٠/٥١٤.

ورأيت غيرها خيراً، فأت الذي هو خير، ثم ليكفر عن يمينه»<sup>(١)</sup> ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ أي فكفارته أن يطعم الحائث عشرة مساكين ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي من أقصده في النوع والمقدار، وهو لكل مسكين عندنا نصف صاع من بر، أو صاع من شعير، وعن ابن عمر أن الأوسط الخبز والتمر، والخبز والزيت، والخبز والسمن، والأفضل الخبز واللحم ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ وهو ثوب يستر عامة بدنه، فلم يُجْزِ السراويل فقط ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي إعتاق إنسان كيفما كان، مؤمنة كانت أو كافرة لإطلاق النص، وشرط الشافعي الإيمان حملاً للمطلق على المقيد، ومعنى «أو» التخيير في إيجاب إحدى الكفارات الثلاث، وتفاوتها قدراً وثواباً، لا ينافي التخيير المفوض، وبدأ سبحانه بالإطعام تسهياً على العباد ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ شيئاً من الأمور المذكورة ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ متتابعة، واعتبر عدم الوجدان وقت الأداء، ويشترط استمرار العجز إلى الفراغ من الصوم، واختلف في الواجد، روي عن قتادة قال: إذا كان عنده خمسون درهماً فهو ممن يجد، ويجب عليه الإطعام، وعن الشافعي وأحمد ومالك، من عنده فضل عن قوته وقوت من تلزمه يومه وليلته، وعن الإمام أبي حنيفة إذا لم يكن عنده نصاب فهو غير واجد<sup>(٢)</sup> ﴿ذَلِكَ﴾ الذي مضى ذكره ﴿كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ فبروا فيها ولا تحنثوا إذا لم يكن الحنث خيراً، أو ولا تحلفوا أصلاً ولا تبدلوا لكل أمر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ أو بأن تكفروها إذا حنثتم، ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كذلك البيان البديع ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أحكام شريعته ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته فيما يعلمكم أو نعمة الواجب شكرها.

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/٣٣٠ ومسلم في الأيمان رقم ١٦٥٤ والنسائي ٢٥/٧ في الأيمان أيضاً.

(٢) النصاب يراد به نصاب الزكاة، فكل من ملك/٢٠٠/ مائتي درهم فضة فهذا لا يجزئه الصوم لأنه غني ويجب عليه أن يطعم أو يُعتق.

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿٩٢﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٣﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٤﴾ .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ ﴾ وهي الأصنام المنصوبة للعبادة، و فرق بعضهم بأن الأنصاب حجارة لم تصوّر، كانوا ينصبونها للعبادة ويذبحون عندها، والأصنام ما صُوّر، وعُبد من دون الله عز وجل ﴿ وَالْأَزْلَامُ ﴾ وهي الأقداح التي كانوا يستقسمون بها كاستشارة لآلهتهما المزعومة ﴿ رِجْسٌ ﴾ قدر تعاف عنه العقول، وعن الزجاج: الرجس كل ما استقدر من عمل قبيح ﴿ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ لأنه مسبب عن تسويله وتزيينه، أي رجس كائن من عمله ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ أي الرجس، وابتعدوا عن هذه القذارات الحسية والمعنوية ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لكي تفلحوا بالاجتناب عنه، لقد أكد الله تحريم الخمر والميسر، في هذه الآية الكريمة، بفنون التأكيد، حيث صُدِّرت الجملة بإنما، وقرنا بالأنصاب والأزلام، وسُمِّيا رجساً من عمل الشيطان، تنبيهاً على أن تعاطيها شرٌّ بَحْتٌ، وأمر بالاجتناب عنها لا عَنْ عَيْنِهِمَا، وجعل ذلك سبباً يُرْجى منه الفلاح، فيكون ارتكابها خيبة وضلالاً، ثم قرر ذلك بيان ما فيها من المفساد الدنيوية والدينية .

فقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ وتخصيصهما بإعادة الذكر، للتنبية على أن المقصود بيان حالهما، وذكر الأصنام والأزلام، للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة

والشر، وقوله تعالى: ﴿وَيُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ تخصيص الصلاة بالإفراد، مع دخولها في الذكر للتعظيم، وللإشعار بأن الصادَّ عنها كالصادَّ عن الإيمان، لما أنها عماد الدين، ثم أعيد الحثُّ على الانتهاء بصيغة الاستفهام، فقال سبحانه ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾؟ إيداناً بأن الأمر في الزجر والتحذير، وكشف ما فيهما من المفساد والشرور، قد بلغ الغاية، وأن الأعدار قد انقطعت، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون؟ أم أنتم على ما كنتم عليه؟ ولذا قال عمر رضي الله عنه: انتهينا ربنا انتهينا!

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي أطيعوهما في جميع ما أمرا به، ونهيا عنه ﴿وَأَحْذَرُوا﴾ مخالفتهما في ذلك، أمروا بالحدز لأنه يدعوهم إلى اتقاء كل سيئة، وعمل كل حسنة ﴿فَإِنْ قَوْلَيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الامتثال بما أمرتم به ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي إنما عليه تبليغكم وقد فعل ذلك، وقامت عليكم الحجة، وانتهت الأعدار، فلم يبق بعد ذلك إلا العقاب، الذي ينتهي بكم إلى الدمار.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ أي إثم وخرج ﴿فِيمَا طَعَمُوا﴾ أي تناولوا أكلاً أو شرباً، عن البراء بن عازب قال: مات ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ وهم يشربون الخمر، فلما نزل تحريم الخمر، قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾<sup>(١)</sup> الآية. والطعمُ كالطعام، يُستعمل في الأكل والشرب ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ أي ليس عليهم جناح، فيما تناولوه من المأكول والمشروب، إذا اتقوا أن يكون في ذلك شيء من المحرمات ﴿وَأَمَّنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي استمروا على الإيمان، والأعمال الصالحة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ أي اتقوا ما حرم عليهم بعد ذلك ﴿وَأَمَّنُوا﴾ بتحريمه واستمروا على الإيمان ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ أي ما حرم عليهم بعد ذلك

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم/٣٠٥١/ وقال: حديث حسن صحيح.

﴿ وَأَحْسِنُوا ﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة، والمعنى إذا اتقوا المحرمات واستمروا على ما هم عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، فلا جناح عليهم فيما طعموه من المطاعم والمشارب، إذ ليس فيها شيء محرم عند طعمه ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فلا يؤاخذهم بشيء من ذلك ومن صار محسناً، صار لله محبوباً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بَشْيءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَاكٍ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٩﴾ أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٠٠﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خطاب فيه تكريم لأهل الإيمان ﴿ لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ ﴾ أي والله ليعاملنكم معاملة من يختبركم ليعرف أحوالكم ﴿ بَشْيءٍ مِّنَ الصَّيْدِ ﴾ أي من صيد البر، مأكولاً أو غير مأكول ﴿ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ ابتلاهم الله تعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم، بحيث يتمكنون من صيدها، أخذاً بأيديهم، وطعناً برماحهم وهم محرمون، والتقليل ﴿ بَشْيءٍ ﴾ للتمييز على أنه ليس من العظائم، التي تدحض الأقدام، كالاتلاء ببذل الأنفس والأموال، فمن لم يثبت عنده كيف يثبت عند ما هو أشد منه؟ فنهاهم الله تعالى عنها ابتلاءً، كما ابتلى بني إسرائيل بصيد البحر، لكن الله عزَّ وجل عصم المسلمين فلم يصطادوا شيئاً منها، وعن ابن عباس ومجاهد: أن الذي تناله الأيدي فراخ الطير وصغار الوحش، والذي تناله

الرماح الكبار من الصيد ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي ليطمئن الخائف من عقابه الأخروي، وهو غائب مترقب، لقوة إيمانه فلا يتعرض للصيد، ممن لا يخافه كذلك لضعف إيمانه فيقدم عليه ﴿فَمَنْ أَعَدَّكَ بِعَدِّ ذَلِكَ﴾ بعد ذلك النهي، فصاد في حالة الإحرام ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدارين، لأن من لا يملك زمام نفسه، ولا يراعي حكم الله تعالى، في أمثال هذه البلايا الهيئته، لا يكاد يراعيه في عظام الأمور.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ والتصريح للنهي مع كونه معلوماً من قوله تعالى ﴿غير محلي الصيد﴾ لتأكيد الحرمة، وترتيب ما تعقبه عليه، و﴿حُرْمٌ﴾ جمع حرام، وهو المحرم، أي لا تقتلوه وأنتم محرمون، وذكر القتل دون الذبح ونحوه، للإيدان بأن الصيد وإن ذبح، في حكم الميتة، وإليه ذهب أبو حنيفة وأحمد ومالك، وهو القول الجديد للشافعي، وفي القديم لا يكون في حكم الميتة، يحل أكله للغير ويحرم على المحرم ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾ أي ذاكراً لإحرامه، عالماً بحرمة قتل ما يقتله ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ﴾ أي فعلية جزاء مماثل لما قتله، والمراد به عند الشيخين: المثل باعتبار القيمة، يُقَوِّمُ الصَّيْدُ حَيْثُ صِيدَ فَإِنْ بَلَغَتْ قِيَمَتَهُ قِيَمَةَ هَدْيٍ، يُخَيَّرُ الْجَانِي أَنْ يَشْتَرِيَ بِهَا مَا قِيَمَتُهُ قِيَمَةَ الصَّيْدِ، فَيَهْدِيهِ إِلَى الْحَرَمِ، وَبَيْنَ أَنْ يَشْتَرِيَ بِهَا طَعَاماً، فَيُعْطِي كُلَّ مَسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ، أَوْ صَاعاً مِنْ غَيْرِهِ، وَبَيْنَ أَنْ يَصُومَ عَنْ طَعَامِ كُلِّ مَسْكِينٍ يَوْمًا ﴿مِنَ النَّعْمِ﴾ بيان للهدى المشتري بالقيمة، وعند مالك والشافعي: هو المثل باعتبار الخلقة، لأن الله أوجب المثل مقيداً بالنعمة، ولنا أن النص أوجب المثل، والمثل المطلق هو المثل صورة ومعنى، وهو غير مراد هنا بالإجماع، فبقي أن يراد المثل معنى وهو القيمة، ومما يرشد إلى أن المراد بالمثل هو القيمة، قوله عز وجل ﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ أي بمثل ما قتل ﴿ذَوَاعْدِلٍ مِنْكُمْ﴾ أي حكمان عدلان من المسلمين، لأن التقويم هو الذي يحتاج إلى النظر والاجتهاد، دون المماثلة في الصورة، التي يستوي في معرفتها كل أحد من

الناس، والمراد من ﴿ذوا عدل﴾ التعدد، ويراد منه اثنان، لأنه أقل مراتبه، يروى أنه جاء أعرابي إلى أبي بكر فقال: أني أصبت من الصيد كذا، فسأل أبو بكر «أبي بن كعب» فقال الأعرابي أتيتك أسألك وأنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: قال الله تعالى: ﴿يُحْكَمُ بِهِ ذُوا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ فشاورت صاحبي، فإذا اتفقنا على شيء أمرناك به ﴿هَدْيًا﴾ أي يحكم به في حال الهدى ﴿بَلِّغِ الْكَعْبَةَ﴾ معنى بلوغه الكعبة أن يذبح في الحرم ﴿أَوْ كَفَّرَهُ طَعَامًا مَسْكِينٍ أَوْ عَدَلَ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ إشارة إلى الطعام كأنه قيل: فعليه جزاء مماثل للمقتول من النعم، أو طعام مساكين، أو صيام أيام بعددهم، فحينئذ يجزىء، لكون المماثلة وصفاً لازماً للجزاء، ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أي فعليه جزاء ليدوق سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي من قتل الصيد قبل التحريم ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى قتل الصيد بعد النهي ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أي فإن الله ينتقم منه في الآخرة، لأنه انتهك محارم الله، وأما الكفارة فإذا تكرر من المحرم قتل الصيد، تكرر عليه الجزاء، وعن ابن عباس يعزَّر بالضرب ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يغالب ﴿ذُو أَنْقَامٍ﴾ شديد فينتقم ممن يتعدى حدوده، ويصر على معاصيه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها المحرمون ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ أي ما يصاد في المياه كلها، بحراً كان أو نهراً وهو ما يعيش في الماء، مأكولاً أو غير مأكول ﴿وَطَعَامُهُ﴾ أي ما يُطعم من صيده، والمعنى: أحل لكم التعرض لجميع ما يُصاد في المياه، والانتفاع به، وأكل ما يؤكل وهو السمك، وقيل المراد بصيد البحر: ما صيد، وبطعامه ما قذفه البحر ميتاً ﴿مَتَلَعًا لَكُمْ﴾ تمتيعاً لكم للمقيمين منكم ﴿وَاللِّسْيَارَةَ﴾ أي المسافرين يتزودونه قديداً ﴿وَحَرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ﴾ وهو ما يفرخ فيه، وإن كان يعيش في الماء كطيور الماء ﴿مَا دُمَّتْ حُرْمًا﴾ أي محرمين، وظاهره يوجب حرمة ما صاده الحلال على المحرم، وإن لم يكن له مدخل فيه، وهو قول عمر، وابن عباس، وجماعة من السلف، وعن أبي هريرة وسعيد بن جبيرة أنه يحل له ما صاده الحلال، إذا لم يشر إليه، ولم يدل عليه، وهذا مذهب أبي حنيفة لأن

الخطاب للمحرمين دون غيرهم، واستدل بما روي عن أبي قتادة قال: «كنت يوماً جالساً مع رجال من أصحاب النبي ﷺ والقوم محرمون، وأنا غير محرم، فأبصروا حماراً وحشياً، فقمْتُ إلى الفرس فشددت على الحمار فعفرته، ثم جئت به، فوقعوا فيه يأكلون، ثم إنهم شكوا في أكلهم إياه، فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال لهم: «هل منكم أحد أمره أن يحمل عليها، أو أشار إليها؟ قالوا: لا، قال: كلوا ما بقي من لحمها»<sup>(١)</sup>. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْمَرُونَ﴾ لا إلى غيره، فيجازيكم على أعمالكم، وهو وعيد وتهديد.

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبِدَّ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾<sup>(٩٧)</sup> ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾<sup>(٩٨)</sup> ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾<sup>(٩٩)</sup> ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْوَلِي الْأَلْبَابَ لِعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ﴾<sup>(١٠٠)</sup>.

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ ﴾ أي صيرها ﴿ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ سمي البيت الحرام، لأن الله تعالى حرّمه، وعظّمه، وشرّفه، وحرّم أن يُصاد فيه، وأن يُعضد شجره، وأراد بالبيت الحرام جميع الحرم، فإنّ الحرم كما أنه سبب لأمن الوحش، فكذلك هو لحصول الخيرات ﴿ قِيَمًا لِلنَّاسِ ﴾ أي سبب انتعاشهم، في أمر معاشهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويربح فيه التجار، ويتوجه إليه الحجاج والعمار ﴿ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ الذي يؤدي فيه

(١) أخرجه البخاري في الحج ٢٢/٤ باب إذا رأى المحرمون صيداً، ومسلم في الحج أيضاً رقم ١١٩٦ باب تحريم الصيد للمحرم، ومالك في الموطأ ١/٣٥٠.

الحج، أي وجعل الشهر الحرام ﴿وَأَهْدَىٰ وَأَقْلَيْدًا﴾ أيضاً قياماً لهم، والمراد بالقلائد: البدن خصت بالذكر، لأن الثواب فيها أكثر، وبهاء الحج بها أظهر، والهدي الذي يهدي للحرم من الأنعام ﴿ذَلِكَ﴾ أي شرع ذلك ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فإن تشريع هذه الشرائع، المستتعبة لدفع المضار الدينية والدنيوية، من أوضح الدلائل على حكمة الشارع، وعدم خروج شيء عن علمه المحيط ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم مصالح العباد، وما فيه خيرهم وسعادتهم.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وعيد لمن انتهك محارمه أو أصرَّ على ذلك ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعد بالمغفرة والرحمة، لمن حافظ على مراعاة حرمانه تعالى، وأقلع عن الانتهاك.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي ليس على الرسول إلا تبليغ الرسالة، وقد بلغ ما وجب عليه، فأثي عذر لكم بعد هذا؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي لا يخفى عليه تعالى شيء من أحوالكم وأعمالكم، فيؤاخذكم بذلك.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ أي الرديء والجيد من كل شيء، فهو حكم عام، في نفي المساواة عند الله تعالى بين النوعين، في الأشخاص، والأعمال، والأموال، فُصد به الترغيب في جيد كل منها، والتحذير عن رديئها ﴿وَلَوْ أَعْبَجَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ أي وإن سرك أيها الناظر كثرة الخبيث، فإن العبرة بالرداءة والجودة، دون القلة والكثرة، فإن المحمود القليل، خير من المذموم الكثير، وهو مثل ضربه الله تعالى للتمييز بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والحلال والحرام، ولهذا قال تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْتِيَ الْاَلْبَابِ﴾ أي فاتقوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿لَمَلَكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ راجين أن تبلغوا الفوز بالثواب العظيم، والنعيم المقيم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدِدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن  
تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْءَانُ بُدِدَ لَكُمْ عَمَّا ءَلَّهَ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١١٦﴾  
قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١١٧﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن  
بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ  
وَٱكْثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَىٰ ٱلرَّسُولِ  
قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ءأُولُو كَأَن ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا  
يَهْتَدُونَ ﴿١١٩﴾ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسِكُمْ لَا يُضِرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ  
إِلَى ٱللَّهِ مَرَجِعَكُمْ جَمِيعًا فَيُنذِرِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٠﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ ﴾ أي لا تسألوا عن أمور لا  
حاجة لكم إليها، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، عن أبي هريرة  
قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج  
فحجُّوا، فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثاً،  
ثم قال ﷺ: ذروني ما تركتكم، ولو قلت: نعم، لوجبتُ ولَمَا استطعتم،  
وإنما أهلك من كان قبلكم، كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا  
أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»<sup>(١)</sup>.  
و«أشياء» هو اسم جمع وقيل هو جمع شيء ﴿ إِن بُدِدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾ أي إن  
ظهرت لكم وكلفتهم بها، شقت عليكم وساءتكم لأنكم لا تحملونها ﴿ وَإِن  
تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْءَانُ بُدِدَ لَكُمْ ﴾ والمراد ما يشق عليهم من التكليف  
الصعبة، التي لا يطيقون حملها، والأسرار الخفية التي يفتضحون  
بظهورها، ونحو ذلك مما لا خير فيه، لإيجابها عليهم بطريق التشديد،

(١) أخرجه مسلم في الحج رقم ١٣٣٧ باب فرض الحج مرة في العمر، والنسائي  
١١٠/٥ باب وجوب الحج.

لإساءتهم الأدب، أي لا تكثروا مساءلة رسول الله ﷺ عما لا يعينكم، إن أفتاكم بها حسبما أوحى إليه لم تطيقوا حملها، والآية تتضمن النهي عن الفضول، وما لا يعني، وفي الحديث الشريف: «إن أعظم المسلمين جُرماً، من سأل عن شيء، لم يُحرّم على الناس، فحرّم من أجل مسألته»<sup>(١)</sup> والسؤال على نوعين: أحدهما: ما كان على وجه التبيين فيما يحتاج إليه من أمر الدين، وذلك جائز، كسؤال عمر وغيره في الخمر، وثانيهما: ما كان على وجه التعنت، نظيره سؤال الأقرع حين وجب الحج، والمراد بما في الحديث هذا النوع<sup>(٢)</sup> ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ عما سلف من مسألتكم، فلا تعودوا إلى مثلها، وفيه حثهم على الجد في الانتهاء عنها يعني كره الله لكم السؤال عنها فلم يؤخذكم بها ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بعقوبة ما يفرط منكم، ويعفو عن كثير.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ أي سألوا مثل هذه المسألة المحظورة، المستحقة للوبال، والضمير في موقع المفعول به، وذلك من باب الحذف والإيصال، والمراد سأل عنها، واختلف في تعيين القوم فعن ابن عباس هم قوم عيسى سألوه إنزال المائدة، وقيل هم قوم موسى سألوه بيان البقرة ﴿مَنْ قَبْلَكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا﴾ أي صاروا بسببها ﴿كُفْرِينَ﴾ لأنهم سألوا أنبياءهم أشياء، فلما أمروا بها تركوها فهلكوا.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ ردٌّ وإنكارٌ لما ابتدعه

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٢٢٦/١٣ ومسلم في الفضائل رقم ٢٣٥٨ باب توقيره ﷺ.

(٢) ورد عن حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس في تفسير هذه الآية أن المعنى: لا تسألوا عن أشياء خفية، يكون في الإخبار عنها مساءة لكم، إمّا لتكليف شرعي يلزمكم، وإمّا لخبر محزن يسوءكم، مثل الذي سأل الرسول ﷺ: مَنْ أَبِي؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء، وابتدأكم ربكم بأمر، فحينئذ إن سألتهم عن بيانه بين لكم. نقله صاحب البحر المحيط ٣١/٤.

أهل الجاهلية، وهو أنهم كانوا إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن، آخرها ذكر، بَحَرُوا أذنها - أي شقوها - وَحَلَّوْا سبيلها، فلا تُركب ولا تُحلب، وكان الرجل منهم يقول: إن شفيتُ فناقتي سائبة، ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، فإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً فهو لآلهتهم، وإذا ولدتهما قالوا وصلت الأنثى أخاها فلا يُذبح لها الذكر، وإذا جاء من صلب الفحل عشرة أبطن حَرَمُوا ظهره، ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى، وقالوا: حمى ظهره، ومعنى ﴿ما جعل﴾ أي ما شرع ووضع ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ حيث يفعلون ما يفعلون، ويقولون: الله أمرنا بهذا، وأول من سبَّ السوائب، ونصب الأنصاب، وغير دين إبراهيم هو «عمرو بن لُحَيٍّ» ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أن ذلك افتراء باطل، ولا يعرفون الحلال من الحرام، ولكنهم يقلّدون كبارهم، ومنهم من يعرف بطلان ذلك، ولكن منعهم حبُّ الرياسة، وتقليد الآباء أن يعترفوا به.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي لأولئك المشركين على سبيل الإرشاد إلى الحق ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الكتاب المبين للحلال والحرام ﴿وَأِلَى الرَّسُولِ﴾ الذي أنزل عليه ذلك، لتمييزوا الحرام من الحلال ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ في هذا الشأن فلا نلتفت لغيره، وفي الآية بيان لعنادهم، وانهماكهم في التقليد، واستعصائهم على الهادي إلى الحق ﴿أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي يقولون هذا القول، ولو لم يكن أبائهم يعقلون شيئاً من الدين، ولا يهتدون إلى الحق؟ والهمزة للإنكار، والتعجب، وفائدة التعجب المبالغة في الإنكار، ودلت الآية أن الاقتداء إنما يصح، بمن عُلِمَ أنه عالم مهتد، فلا يكفي التقليد للجاهل الذي ليس له حجة صحيحة من شرع ودين.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة، الذين ماتوا على الكفر، ف قيل لهم ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي الزموا أمر أنفسكم وإصلاحها ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي لا يضركم ضلال من ضلَّ، إذا كنتم

مهتدين، ومن جملة الاهتداء أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، لحديث «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدر على أن يُغيّروا ولا يُغيّروا، إلا يوشك أن يعمّمهم الله بعقاب»<sup>(١)</sup> وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل أنه قال يا رسول الله أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ ﴿لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم﴾ فقال ﷺ يا معاذ: «مروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيتم شحاً مطاعاً، وهوىً متّبعاً، وإعجاب كل امرئ برأيه، فعليكم أنفسكم، لا يضرّكم ضلالة غيركم»<sup>(٢)</sup> ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى أحد سواه ﴿مَرَجِعُكُمْ﴾ رجوعكم يوم القيامة ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لا يتخلف عنه أحد ﴿فِي نَيْتِكُمْ﴾ بالشواب والعقاب ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من أعمال الهداية والضلال.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ  
أَنَّانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ  
مُصِيبَةٌ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا  
نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ  
﴿١٠٧﴾ فَإِنْ عُدَّ عَلَىٰ آثِمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ  
أَسْتَحَقُّ عَلَيْهِمُ الْأُولَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا  
أَعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ  
يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُهُمْ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ .

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم رقم ٤٣٣٨ والترمذي في التفسير رقم ٣٠٥٩ وفي الفتن رقم ٢١٦٩.

(٢) أخرجه ابن مردويه، ورواه الترمذي بأوسع من هذا رقم ٣٠٥٨ في كتاب التفسير.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله ﴿شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ﴾ المراد ههنا الإِشهاد في الوصية، أي أشهدوا بعض المسلمين العدول عند الوصية ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾ أي شارفه وظهرت علائمه ﴿حِينَ أَلْوَصِيَّتِ﴾ أي حين تريدون تقرير الوصية على أنفسكم، ونبهت الآية على أن الوصية من المهمات المقررة، التي لا ينبغي أن يتهاون بها المسلم، ويذهل عنها ﴿أَثْنَانِ﴾ أي شهادة اثنين، لفظه خبر ومعناه أمر، يعني ليشهد اثنان ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي من أقاربكم المسلمين، لأن الأقارب أعلم بأحوال الميت، وأنصح له، وأقرب إلى تحري ما هو أصلح له ﴿أَوْ ءَاخِرَانِ﴾ أي شهادة آخرين ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي من غير المسلمين، كما روي عن ابن عباس، وابن مسعود، واختاره جماعة من المتأخرين ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم فيها ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ أي فقاربكم الأجل حينئذ، وليس معكم من أهل الإسلام من يتولى أمر الشهادة، كما هو الغالب المعتاد في الأسفار، فليشهد آخران على الوصية ﴿تَحْسِبُونَهُمَا﴾ أي تقفونهما للتحليف ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أي من بعد صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس، ولأن جميع الأديان يعظمونه ويجتنبون فيه عن الحلف الكاذب، والخطاب للموصى لهم، وقيل للورثة، وقيل للحكام والقضاة ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ فيحلفان به تعالى ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ معترضة بين القسم وجوابه، أي إن ارتبتم في شأنهما بخيانة، وأخذ شيء من التركة فحلفوهما ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ جواب القسم والمعنى: لا نأخذ لأنفسنا عَرَضًا من الدنيا، بالحلف الكاذب أي لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي المقسم له ﴿ذَاقُرْبَانًا﴾ أي قريباً منا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ﴾ أي الشهادة التي أمر الله، بحفظها وتعظيمها ﴿إِنَّا إِذْ أَلَمْنَا الْأَيْمِينَ﴾ أي إن كتمناها نكون من الظالمين، المستحقين للعقوبة.

﴿فَإِنْ عُرِيَ﴾ أي اطلع بعد التحليف ﴿عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي فعلاً يوجب إثماً من تحريف، أو كتم، بأن ظهر بأيديهما شيء من التركة

﴿فَأَخْرَانِ﴾ أي فرجلان آخران ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي يقومان مقام الذين  
 عثر على خيانتهم، لإظهار الحق، وإبراز كذبهما ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ  
 الْأَوْلِيَيْنِ﴾ أي من أهل الميت والمراد من ﴿الأوليين﴾ الأقرباء إليه وهما  
 في الحقيقة الآخران القائمَان مقام الذين استحقا إثماً ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ  
 لَشَهَدَتُنَا﴾ أي ليميننا ﴿أَحَقُّ﴾ بالقبول ﴿مِنَ شَهَدَتَيْهِمَا﴾ أي من يمينهما  
 ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ عليهما بإبطال حقهما ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي الظالمين  
 أنفسهم، والمراد بالشهادة عند الكثيرين ومنهم ابن عباس اليمين، ﴿وما  
 اعتدينا﴾ أي ما تجاوزنا في شهادتنا الحق، وما اعتدينا عليهما بإبطال  
 حقهما، ومعنى الآيتين عند المفسرين: أن المحتضر إذا أراد الوصية،  
 ينبغي أن يشهد عدلين من ذوي دينه، أو نسبه، فإن لم يجدهما، بأن كان  
 في سفر فأخران من غيرهم، ثم إن وقع ارتياب في صدقهما، أقسما على  
 صدق ما يقولان، بالتغليظ في الوقت، فإن اطلع على كذبهما بأمانة،  
 حلف آخران من أهل الميت، وادعى أن الحكم منسوخ. قال الزجاج: إن  
 هذه الآية من أشكال ما في القرآن، وقال الفخر الرازي: إن هذه الآية في  
 غاية الصعوبة، إعراباً وحكماً وسبحان الخبير بحقائق كلامه.

﴿ذَلِكَ﴾ أي الحكم المذكور ﴿أَدْفَعُ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَةِ عَلَى وَجْهَيَّ﴾ أي  
 أقرب أن يؤدي الشهود، الشهادة على وجهها الذي تحملوها عليه، من غير  
 تحريف ولا خيانة فيها، خوفاً من العذاب الأخروي ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ  
 أَيْمَنِهِمْ﴾ معطوف على مقدر كأنه قيل: ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على  
 وجهها، ويخافوا عذاب الآخرة، بسبب اليمين الكاذبة، أو يخافوا الافتضاح  
 بإبطال أيمانهم، والعمل بأيمان الورثة، فينزعروا عن الخيانة، فأبي  
 الخوفين وقع حصل المقصد، الذي هو الإتيان بالشهادة على وجهها  
 ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة أحكامه التي من جملتها ما ذكر ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ ما  
 تؤمرون به سماع طاعة وقبول ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن  
 الطاعة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ  
عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴿١١٩﴾﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى  
وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَإِذْ  
عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ  
كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَةَ  
وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ  
عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ  
مُبِينٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ منصوب بمضمر، أي واحذروا يوم يجمع  
الله الرسل، فإن تذكّر ذلك اليوم الهائل، مما يضطرهم إلى تقوى الله عزّ  
وجل، وتخصيص الرسل بالذكر لبيان شرفهم وفضلهم، وتعظيم شهادتهم،  
فالشهود في الآخرة رسل الله المكرمون، وأما الحشر فلجميع الخلائق كما  
قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾<sup>(١)</sup> ﴿فَيَقُولُ﴾  
لهم مشيراً إلى خروجهم عن عهدة الرسالة، ماذا أجابتكم به أممكم؟ ولما  
كان سبحانه مطلعاً على أحوال الرسل، لم يقل لهم: هل بلغت رسالاتي؟  
وإنما قال: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾؟ أي ما الذي أجابتكم أممكم، حين دعوتهم  
إلى الإيمان؟ هل أجابوكم إجابة قبول، أو إجابة رد ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ  
عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ قالوا ذلك تادباً أي علمنا ساقط مع علمك، كأنه لا علم  
لنا، فوضوا الأمر إلى علمه تعالى، لما اعتراهم من مقاساة الأحوال  
والشدائد من أممهم، إظهاراً لعجزهم عن بيانه لكثرتهم وفضاعتهم، وفيه  
التشكي منهم، ورد الأمر إلى علمه تعالى، والعلم صيغة مبالغة،  
والمراد به الكامل في العلم.

(١) سورة هود، آية: ١٠٣.

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ في الآية تذكير بعبودية عيسى، وتوبيخ لمن عبده من دون الله، وتخصيصه بالخطاب من بين الرسل، لِمَا أن شأنه متعلق بكلا الفريقين، من أهل الكتاب اليهود والنصارى ﴿ أَذْكَرَ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيْكَ ﴾ أي اذكر إنعامي إليكما، وفضلي عليكما، وتذكيره بالنعمة ليكون توبيخاً ومزجراً للكفرة المختلفين في شأنه، ثم وضح طرفاً من هذا الإنعام فقال: ﴿ إِذْ أَيَّدْتُهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ أي حين أمددتك وقويتك بالروح الطاهرة المقدسة «جبريل» عليه السلام ﴿ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي تكلم الناس وأنت طفل رضيع في فراشك، وهذه معجزة ظاهرة، حيث لم تجر العادة بكلام الصبي حديث الولادة، كما تكلمهم في سن الكهولة والشيخوخة، وهذه معجزة أخرى، تدل على حياته في السماء، حيث رفعه الله إليه، وسينزل إلى الأرض في آخر الزمان، ليكلم الناس بحقيقة أمره ورسالته، وليس كما زعم اليهود أنهم صلبوه واعتقد به النصارى ﴿ وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ أشارت الآية إلى أن تلك الخوارق، ليست من قبل عيسى بل من جهته سبحانه، أظهرها على يديه معجزة له ﴿ وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ أعيدت «إذ» لكون إخراج الموتى من قبورهم، لا سيما بعدما صاروا رميماً، معجزة باهرة، حَرِيَّةٌ بتذكير وقتها صريحاً ﴿ وَإِذْ كَفَفْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ ﴾ يعني اليهود، حين همُّوا بقتله، ولم يتمكنوا منه ﴿ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي حين جئتهم بالمعجزات الواضحة، مما ذكر ومما لم يذكر، كالإخبار بما يأكلون، ويدخرون في بيوتهم، ونحو ذلك ﴿ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ فإن قولهم ذلك مما يدل على أنهم قصدوا اغتياله، أي كفتهم عنك حين قالوا ذلك، عند مجيئك إليهم بالبينات، فزعموا أن هذه الخوارق، ما هي إلا من قبيل السحر الواضح.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَأَمِنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١٦﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوْلَادِنَا وَعَآخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٩﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾ ۝

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ معنى الإيحاء إليهم، أمره تعالى إليهم في الإنجيل، أي حين أمرت الحواريين وقذفت في قلوبهم، فجاء استعمال الوحي بمعنى الأمر، وإنما لم يترك الوحي على ظاهره، لأنه مخصوص بالأنبياء، والحواريون ليسوا كذلك ﴿ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ أن مفسرة لما في الإيحاء من معنى القول، كأنه قيل: آمنوا بوحداثيتي، وبرسالة رسولي، وفيه إشارة إلى عدم إخراجهم عن حد الرسالة، فهو رسول وليس بإله ﴿ قَالُوا ءَأَمِنَّا ﴾ طبق ما أمرنا به ﴿ وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ أي مخلصون في إيماننا، وهذا القول منهم نعمة جليلة، كسائر النعم عليه وعلى والدته أيضاً.

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ كلام مستأنف، مسوق لبيان ما جرى بينه عليه السلام وبين قومه، منقطع عما قبله كما ينبيء عنه الإظهار ﴿ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ الأظهر من أقوال المفسرين، أن هذا السؤال من الحواريين، لم يكن عن شك وارتياب في قدرة رب الأرباب، وإنما كان سؤال استفسار واستخبار، عن إنزال الله المائدة من السماء، فسؤالهم كان للاطمئنان والتثبت، ولكنهم أخطأوا في التعبير فقالوا: ﴿ هل يستطيع ﴾ ويريدون به: هل يفعل ربك ذلك، فإنهم كانوا مؤمنين، وأيد ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ ﴾ الآية، ومعنى: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ ﴾ هل يجيئنا ربك إلى هذا الطلب، فينزل علينا

مائدة، والمائدة في المشهور الخوان الذي عليه الطعام، ﴿ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ من أمثال هذا السؤال، واقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات ﴿ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ بكمال قدرته تعالى وصحة نبوتي، أو صدقتكم في ادعائكم الإيمان.

﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال وهو أن يتمتعوا منها ولسنا نريد من السؤال إزالة شبهتنا في قدرته سبحانه وفي صحة نبوتك وليس مرادنا اقتراح الآيات بل مرادنا ما ذكر ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا ﴾ بازدياد اليقين ﴿ وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ علم مشاهدة على ما قدمناه ﴿ وَتَكُونُ عَلَيْهِمَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ عند من لم يحضرها ليزداد المؤمنون بشهادتنا إيماناً.

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ لما رأى عليه السلام أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، قام فألقى عنه الصوف، ولبس الشعر الأسود، ثم توضأ واغتسل، ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله، ثم دعا الله فقال: ﴿ اَللّٰهُمَّ رَبَّنَا ﴾ ناداه سبحانه وتعالى مرتين مرة بوصف الألوهية، ومرة بوصف الربوبية، إظهاراً لغاية التضرع، ومبالغة في الاستدعاء، حذف حرف النداء في الأول وغوض عنه الميم، أي يا الله يا ربنا ﴿ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي أنزل علينا مائدة فيها الطعام، من محض فضلك وعطائك، من عندك، قال عمار بن ياسر: إن المائدة التي نزلت كان عليها من ثمر الجنة، ومن طعام الجنة، وقال سلمان الفارسي: إن المائدة لما نزلت قال شمعون رئيس الحواريين: يا روح الله!! أمن طعام الدنيا هذا، أم من طعام الجنة؟ فقال له: ليس من طعام الجنة، ولا من طعام الدنيا، إنما هو شيء ابتدعه الله فقال له كن فكان ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا ﴾ أي يكون يوم نزولها عيداً نعظمه، ويكون يوم فرح ﴿ لِأَوْلِيَانَا وَآخِرِنَا ﴾ أي لمن في زماننا من أهل ديننا، ولمن يأتي بعدنا ﴿ وَآيَةٌ مِنْكَ ﴾ أي آية كائنة منك، دالة على كمال قدرتك، وصحة نبوتي ﴿ وَأَرْزُقْنَا ﴾ صنوف الطعام في هذه المائدة ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴾ أي خير من يرزق، لأنه خالق الأرزاق، ومعطيها بلا عوض.

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْزَلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ إجابة لسؤالكم، أي سأنزل المائدة من السماء حسب طلبكم ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ ﴾ أي بعد تنزيلها ﴿ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ ﴾ بسبب كفره بعد معاينة هذه الآية ﴿ عَذَابًا ﴾ اسم مصدر بمعنى التعذيب ﴿ لَا أُعَذِّبُهُ ﴾ أي أعذبه تعذيباً لا أعذبه مثل ذلك التعذيب ﴿ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أي أحداً من البشر. روى الترمذي عن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت المائدة من السماء، خبزاً ولحماً، وأمروا أن لا يخونوا، ولا يذخروا لغد، فخانوا، وادخروا ورفعوا للغد، فمسحوا قرده وخنازير»<sup>(١)</sup>.

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۗ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۗ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِيٓ بِحَقِّ ۗ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۗ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۗ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّٰلِحِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۗ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۗ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۗ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ۝

﴿ وَإِذْ قَالَ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ أي اذكر وقت قوله تعالى لعيسى ابن مريم في الآخرة، توبيخاً للكفرة ﴿ ۗ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ ﴾ أي أنت دعوت الناس إلى عبادتك، والاعتقاد بألوهيتك وألوهية أمك؟ ﴿ مِنْ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ٢٤٢/٥ برقم ٣٠٦١.

دُونَ اللَّهِ ﴿ أَي من غير الله تعالى، فجعلت نفسك في مقام الألوهية، وإنما سأله ذلك على رؤوس الأشهاد في الآخرة، توييحاً لمن عبد المسيح، ليكون إنكاره أبلغ في التكذيب، وأشد في التقرير والتأنيب ﴿ قَالَ ﴾ أي عيسى عليه السلام ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أي تنزيهاً لك يا رب من أن أقول ذلك، وقوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ﴾ أي ما ينبغي لي أن أقول قولاً، لا يحق لي أن أقوله، فأنا عبد لك ولستُ برب، وأنت وحدك المعبود في هذا الوجود، فكيف أدعوهم إلى عبادتي؟ وقوله: ﴿ ما يكون لي ﴾ أي لا ينبغي ولا يليق بي، أبلغ من «لم أقله» فلذا أُوثر عليه، ثم أكد ذلك بحجة أخرى، على سبيل الترقى، فقال: ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ مقرر لعدم صدور القول المذكور، لأن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى، فحيث انتفى علمه سبحانه به، انتفى صدوره عنه ﴿ تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه ﴿ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك، وقوله: ﴿ في نفسك ﴾ للمشاكلة، أو المراد بالنفس الذات، أي تعلم ما أضمره في ذاتي، ولا أعلم حقيقة ذاتك وما فيها من صفات الكمال، والآية مبالغة في الأدب، وتفويض الأمر إليه سبحانه ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ تعليل وتقرير للجملتين باعتبار منطوقه ومفهومه أي إنك أنت العالم بالخفايا والنوايا، وعلمك محيط بما كان ويكون.

ثم بين ما قاله عليه السلام لقومه بقوله:

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ أي ما أمرتهم إلا ما أمرتني به، ثم فسر ما أمر به ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أن مفسرة والمعنى: قلتُ لهم: اعبدوا الله خالقي وخالقكم، فأنا عبد الله مثلكم ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ رقيباً أراعي أحوالهم، وأمنعهم عن المخالفة، وشاهداً لأفعالهم من إيمان وكفر، وفي أنجيلهم ما رواه يوحنا عنه: «وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك» ﴿ مَا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أي كنت شهيداً عليهم مدة دوامي فيما بينهم ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ بالرفع إلى جنابك ﴿ كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي

الحافظ لأعمالهم، والمراقب لحركاتهم، والشاهد على أفعالهم ﴿وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَشَاهِدٌ﴾ أي وأنت المطلع على كل شيء، لا يخفى عليك أمر من أمور العباد.

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وقد استحقوا ذلك حيث عبدوا غيرك، أي إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك، ولا اعتراض على المالك فيما يفعل بملكه، فأنت مالكم تتصرف فيهم كيف شئت، لا اعتراض عليك في فعلك ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي وإن تغفر لهم ما اقترفوا من جرائم وذنوب، ومقصوده تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى وترك التعرض لهذا الباب ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي القوي القادر على جميع المقدورات، ومن جملتها الثواب والعقاب ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة ومصلحة.

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ أي يقول الله تعالى يومئذ، عقيب جواب عيسى مشيراً إلى صدقه ﴿هَذَا﴾ أي هذا اليوم ﴿يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي المستمرين على الصدق، الذين صدّقوا رسل الله في الدنيا، وصدّقوا في إيمانهم وطاعتهم لله، ينفعهم صدقهم لأنه يوم الجزاء على العمل، ويوم فوز المؤمنين الصادقين ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي لهم حدائق وبساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة، ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي نالوا رضوان الله لصدقهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لحصول المقصد الأقصى، وهو الفوز بجنت النعيم ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ كما أن عظم شأن الفوز، تابع لعظم شأن المطلوب، وهو الجنة دار السرور والحبور.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ تحقيق للحق، وتنبية على كذب النصارى، وفساد ما زعموا، أي له خاصة ملك جميع ما في الكون، خلقاً وملكاً، وتصرفاً لا مالك سواه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي القادر على كل شيء، هذه السورة اشتملت على أنواع من العلوم، منها بيان الشرائع

والأحكام، ومنها المناظرة مع اليهود والنصارى، فختم بهذه الآية للإشارة إلى أن كل ما سوى الحق سبحانه موجود بإيجاده، يتصرف في الكل، بالأمر والنهي، والإيجاد والإعدام، وهو الملك العلام، نسأل الله أن يوفقنا لمرضاته، ويجعلنا من الفائزين بجناته ورضوانه.

«تم تفسير سورة المائدة والحمد لله رب العالمين»

\*\*\*